أردنا بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد من أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلى واقع ملموس.

وإيمانا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشتغلين بالدراسات العربية من الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنه بات علينا أن نستغل معطيات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقاة الفكر والقلم من العرب والإسبان المدونة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعماق من الإبداع والدرس والبحث في ثمار واحدة من أهم الحضارات التي ورثتها البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضم في ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عاما، يرنو إلى أن يكون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثراء هذا الكنز المعرفي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي في هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اغتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميق امتناننا، وجزيل شكرنا لكل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد على

المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

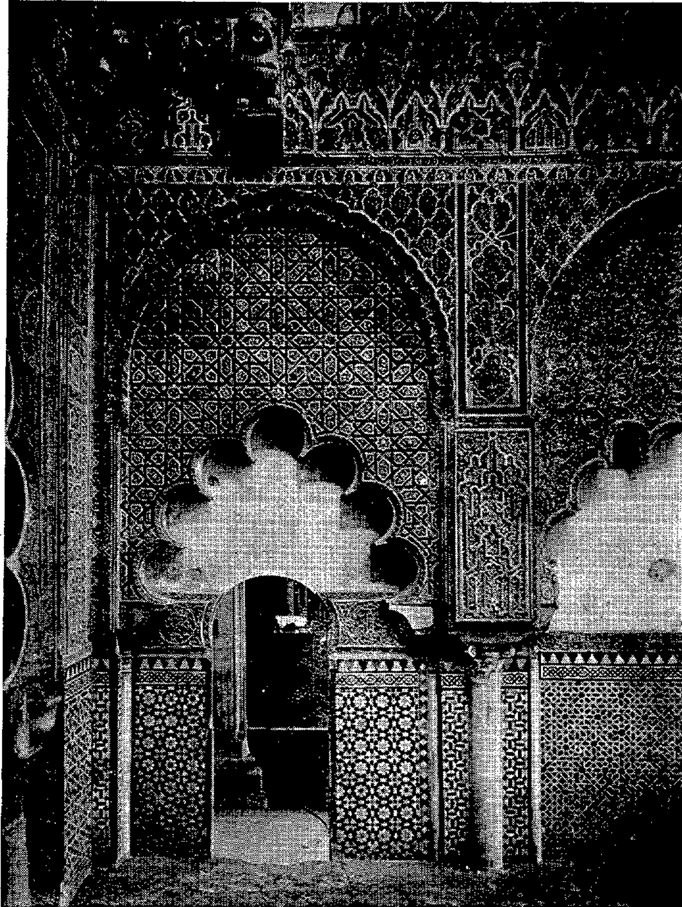
مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

- مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة التعليم العالى

مجلة

معهد الدراسات الاسلامية بمدريد



جامع قرطبة

عام ١٩٧٠

الجمهورية العربيـة المتحدة — وزارة التعليم العـالى

مجـلـة

معهد الدراسات الإسلامية في مدريد



يصدرها معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد



المجلد الخامس عشر — مدريد ١٩٧٠

العنوان : Francisco de Asís Méndez Casariego, 10. — Madrid - 2

ثمن العدد

٣٠٠ قرشاً مصرياً أو ٤٢٠ بيزيته إسبانية أو ٦ دولارات

مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد
١٩٧٠

فهرس القسم العربي

تقديم . . . ورثاء

- كان مقرراً لهذا التقديم أن يعلن مرور عشرين عامـاً على تأسيس المعهد المصرى للدراسات الإسلاميـة فى مدريد ، الذى يصدر هذه المجلة ويرعاها . وقد أعدت هذه المقدمة بالفعـل تسجيلا لمـا نهض به المعهد خـلال هذه الفترة من بحوث وما حققه من أهداف بمعاونة العديد من الأساتذة الإسبان وعلماء الاستشراق فى جامعات العـالم وخارجها ، وذلك فى وقفـة فاحصة تتلمس الطريق إلى المستقبل ، وترجع الفضـل إلى أصحابه . فإذا كان التـاريخ الرائع لإسبانيـا المسلمة هو حظ مشترك بيننـا وبين الإسبان : كان لهم المكان ، وكان لنا ولهم الزمن ، فإن روح البحث والتعاون العلمى قد أتاحا لهذا المعهد منذ اليوم الأول لإنشائه صداقات حقيقية تملأ الأرض الإسبانية طولاً وعرضاً .

- وبدأ التقديم باسترجاع تاريخ يوم عظيم من مآثر عالم العربيـة الكبير الدكتور طه حسين عندما استصدر من مجلس الوزراء قبـل الثورة قرار إنشاء هذا المعهد ، واستقبلناه نحن طلاب البعثة التعليمية المصرية عندما قدم إلى مدريد ، وألقى سيادته خطاب الافتتـاح فى اليوم الحـادى عشر من شهر نوفمبر عام ألف وتسعمائة وخمسين فى جمع غفير من رجال الجامعات وكبار المسئولين والمثقفين الاسبان .

- وان رحلة الذكريات عشرين عاماً إلى الوراء لتستخلص من الأعماق في سهولة ويسر ذلك الأثر الشجى الذى ظل يتردد فى أذنى . . . صوت أستاذنا الدكتور طـــه حسين وزير المعارف فى ذلك الوقت وهو يلقى خطابه معلناً قيام هذا المعهد على أرض الحضارة العربية الأندلسية .

- إلا أن الذاكرة لتصحو وتعود بقوة للحاضر الذى نعيشه فيعتصرنا الألم ويشدنا من الأعماق ، فبينما كانت عجلات آلة الطباعة تدور دوراتها الأخيرة للانتهاء من الملزمة المتبقية من محتويات هذا العدد ، فاض المـداد الأسود فجـأة معلناً الحداد الأعظم . . . ففى تمام الساعة السادسة والربع من مساء الإثنين الثامن والعشرين من شهر سبتمبر الماضى فقدنا ، وفقدت الجمهورية العربية المتحدة والعالم العربى وشعوب العالم أجمع علماً من أبرز شخصيات هذا العصر ، إذ صعدت روح الرئيس الخالد جمـال عبد الناصر إلى بارئها « راضية مرضية » .

- وإذا كان تأسيس هذا المعهد يرجع إلى عهد ما قبل الثورة بفضل شخصية الدكتور طه حسين ومكانته الفريدة ، فإن الفضل يرجع للثورة المصرية فى مساندة هذا المعهد طوال ثمانية عشر عاماً وفرت له فيها السبل ليعكف على رسالته فى هذه المنطقة الزاخرة بالتراث ، العـامرة بالأمجـاد . وظلت هذه اليد موصولة فى أحرج الأوقات عندما بدأت قوى الاستعمار والصهيونية الباغية حربها ضد الجمهورية العربية المتحدة ، ومحاصرة اقتصادياتها ، بعد أن يئست من صرفها عن دورها الطليعى لقوى التحرر والنضال العربى فى كل مكان من أرجاء الوطن العربى الكبير وفى افريقيا وغيرها من الشعوب المتطلعة للتحرر الوطنى . . . فقد أبت دائمـاً قيـادة رئيسنا الحكيمة إلا

الإبقاء على هذا المركز الثقافى رغم نضوب الموارد وتضاعف الالتزامات . وانه إذا أدركنا أن محنة هذا العصر هو ذلك الدور المركب الخطير الذى يلعبه المال فى مقدرات الأمور ومسيرتها ، فإننا لنقدر بمزيد من الإعزاز : أن إرادة الثورة المصرية فى أشد الظروف حلكة لم تبخل على العلم قط ، حقاً لقد واجهنا بعض الضيق ، إلا أن هذا المعهد قد رفع دائماً أعلامه واستمر مؤدياً رسالته ، وصدرت ضمن ذلك أعداد هذه المجلة عاماً تلو عام ، إيماناً من الثورة بأن تاريخ العرب وحده متكامله فى مشرقه وفى مغربه ، وانه إذا كانت الأندلس قد عاشت زمناً من أبرز أزمان العرب ، فإن تاريخ اسبانيا المسلمة هو حلقة متصلة لإمكانيات هذا الشعب ، وطاقاته الخلاّقة ، التى آمن بها رئيسنا العظيم الراحل ، وعمل من أجل بعثها وإحياء مقوماتها المعاصرة دون هوادة أو كلل .

- وفوق ذلك كان رحمه الله مثالاً رائعاً للصبر على المكاره والصمود لها فى عزة وإباء ، ألهب حماس الجماهير العربية لتصحو ، ولتتمسك بكرامتها ، ولتعمل بشغف لتعيد شكل الحياة من حولها .

- ولقد كان من جانبه الانسانى مثالا رائعاً وفريداً يذكرنا بأمجاد المسلمين الأوائل ، فكان رحمه الله كلما زادت هالة الزعامة من حوله ازداد تواضعاً ، وقربا إلى القلوب . وكان معلماً عظيماً ، فلم ييأس ضعيف من عدله ، ولم يبتعد ولم يضجر من الناس ، بل فتح لهم قلبه ، وباشر أمورهم بنفسه على أنه كان يشعر دائماً انه واحد منهم ، غير أن الله جعله أثقلهم حملا .

- لقد وضعت أمامه قوى الامبريالية والصهيونية العالمية أعتى محاولات القهر العسكرى والتحكم البربرى فى القرن العشرين ، إلا أنه كان واضح الرؤية خالص النية ، صادقها . . . ولقد صدق إذ قال :

« إن من واجبى أن أعطى هذا الوطن ، راضياً وفخوراً كل ما لدى . . . حتى الحياة ، إلى آخر نفس فيها . . . »

- واليوم يحنى أعضاء تحرير المجلة هاماتهم ، وينكس المعهد أعلامه خشوعاً لقضاء الله ، ويبلغ بنا الحزن مداه ، ويقسو علينا الألم ، لذا أرجو أن يغفر لنا القارىء هذا التقديم الباكي . . . لقد بكاه مفكرو العالم ، وزعماء الحرية وقادتها أينما وجدوا ، إذ لم يكن شخصاً عاديا من أصحاب الفضل — وأصحاب الفضل كثيرون — بل كان بطلا تصدى للظلم المتجبر ، وللعدوان الخادع فجابههما ، دون رهبة ، بمبادىء لا تحيد ، وصلابة لا تلين ، ومواقف إيجابية حاسمة . . . حتى انه وسط الغمام الذى صاحب لحظات وداعه ألهمَ البطولة لكل عربى من حوله ، فإذا به يشعر بعزم أنه بطل نفسه ، وبطل مستقبله . وبدأ رفاق جمال على الفور خطاهم الحثيثة الواعية ، فى أثره ، يحفرون طريق المجد عبر الصخر .

- إن المصرى العربى جمال عبد الناصر سيبقى دائماً نشيداً حماسياً فذاً تهتف به ملايين الحناجر البشرية ، وستظل تدوى به بقوة فى ضمير العالم المتحضر ، حتى يسود كوكبنا هذا الضائع ، ما نادى به الرسل أجمعين ، من الحب ، والاخاء ، والسلام . . . ؟

عز الدين حموده
مدير المعهد ورئيس التحرير

الأبحاث والنصوص العربية

رسائل جديدة لابن باجة

لم يترك الفيلسوف الأندلسى المتوفى فى ريق الشباب (فى فاس سنة ١١٣٨ م) أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجّة — غير رسائل صغيرة وتعاليق أغلبها على مؤلفات أرسطو . وكان المعروف عند الباحثين منها حتى الآن ثلاث مجموعات ، هى :

— المجموعة المحفوظة فى مكتبة بودلى بأوكسفورد تحت رقم پوكوك ٢٠٦ Pococke .

— مجموعة برلين برقم ٥٠٦٠ فى فهرست ألفرت لمخطوطات برلين العربية (جـ ٤ ص ٣٩٦ — ٣٩٩) وكانت برقم ٨٧ فيدمان Wiedemann .

— مجموعة الاسكوريال برقم ٦١٢

ولكننا اطلعنا على مجموعة رابعة تحتوى على ثلاث رسائل لابن باجة ، اثنتان منها لا توجدان فى المجموعات الثلاث السالفة . وهذه المجموعة محفوظة فى مخطوط ممتاز يحتوى على ٩٢ رسالة فلسفية لفلاسفة يونانيين ومسلمين ، هو المخطوط رقم ٢٣٨٥ فى طشقند (بجمهورية أزبكستان فى الاتحاد السوفييتى) . وقد توفرنا على دراسة وتحقيق ما فيه من رسائل . وها نحن أولاء ننشر هاهنا ما فيه من رسائل لابن باجّة .

ونقدم بين يدى هذه النشرة ببيان لما بقى لدينا من رسائل لابن باجّة فى هذه المجموعات الأربع .

مجموعة أوكسفورد

تمتاز هذه المجموعة بأن الذى جمعها كان تلميذاً لابن باجة ، وهو الوزير أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الإمام ، الذى قال عنه ابن أبى أصيبعة (« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » جـ ٢ ص ٦٣) : « كان هذا أبو الحسن على بن الإمام من غرناطة . وكان كاتباً فاضلاً متميزاً فى العلوم . وصحب أبا بكر بن باجة مدة ، واشتغل عليه . وسافر أبو الحسن على بن الإمام من الغرب ، وتوفى بقوص » . ثم أضيف إلى ما جمعه رسائل أخرى لابن باجة ، وتكون من ذلك هذه المجموعة من الرسائل التى يحتوى عليها مخطوط مكتبة بودلى بأوكسفورد برقم ٢٠٦ پوكوك .

وهذا ثبتٌ بما يحتوى عليه هذا المخطوط :

١ — من قوله على مقالات السماع : من قوله على المقالة الخامسة ؛ من قوله على المقالة السادسة ؛ من قوله على المقالة السابعة ؛ من قوله على المقالة الثامنة .

٢ — أقوال تقدمت له فى معانى السابعة والثامنة [من « السماع الطبيعى » لأرسطو] .

٣ — ومما تقدم له فى معانى الثامنة خاصة [من « السماع الطبيعى » لأرسطو] .

٤ — قوله فى شرح « الآثار العلوية » .

٥ — من قوله فى « الكون والفساد » .

٦ — من قوله على بعض مقالات كتاب « الحيوان » الأخيرة .

٧ — من قوله على كتاب « الحيوان » .

٨ — كلامه فى النبات .

٩ — من كلامه فى ماهيّة الشوق الطبيعى .

١٠ — كلام بعث به لأبى جعفر يوسف بن حسداى[١] .

١١ — ومن كلامه فى إبانة فضل عبد الرحمن بن سيّد المهندس .

١٢ — ومن كلامه نظر آخر .

١٣ — من الأمور التى يمكن بها الوقوف على العقل الفعال .

١٤ — من كلامه فى البحث عن النفس النزوعية .

١٥ — من كلامه فى النفس .

١٦ — من كلامه فى تدبير المتوحد .

١٧ — القول فى الصور الروحانية .

١٨ — من قوله فى الغاية الانسانية .

١٩ — من قوله فى الغرض .

٢٠ — من قوله على الثانية من « السماع » .

٢١ — من الأقاويل المنسوبة إليه .

٢٢ — من قوله فى صدر إيساغوجى .

٢٣ — من كلامه فى لواحق المقولات .

٢٤ — من قوله على كتاب العبارة .

---

(١) هو أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى ، من أفاضل الأطبـاء فى الأندلس ، وممن توفروا على دراسة كتب بقراط وجالينوس . وقد شرع فى شرح بعض كتب بقراط بدعوة من المأمون — أبى عبد الله محمد بن نور الدولة أبى شجاع الآمرى — فى مدة أيام دولته (وقد قتل المأمون فى ٤ رمضان سنة ٥١٩ وصلب بظاهر القاهرة) . وقد سافر يوسف بن أحمد بن حسداى من الأندلس إلى الديار المصرية . وله من الكتب (ا) « الشرح المأمونى لكتاب الأيمان لابقراط المعروف بعهده إلى الأطباء » ، صنفه للمأمون أبى عبد الله محمد الآمرى . (ب) « شرح المقالة الأولى من كتاب الفصول لإبقراط » . (ج) تعاليق وجدت بخطه كتبها عند وروده على الاسكندرية من الأندلس . (د) فوائد مستخرجة استخرجها وهذبها من شرح على بن رضوان لكتاب جالينوس إلى اغلوقن : من القول على أول الصناعة الصغيرة لجالينوس . (ه) كتاب « الإجمال » فى المنطق . (و) « شرح كتاب الإجمال » فى المنطق .

٢٥ — كلامه فى القياس .
٢٦ — كلامه فى البرهان .
٢٧ — وكتب إلى أبى الحسن بن الإمام .
٢٨ — كلامه فى اتصال العقل بالإنسان — [ابتداء هذه الرسالة] .
٢٩ — قول له يتلو رسالة الوداع .
٣٠ — كلامه فى الألحان .
٣١ — كلامه فى النيلوفر .
٣٢ — قسم من رسالة الوداع .

وقد ذكر ابن أبى أصيبعة (جـ ٢ ص ٦٢—٦٤) من هذه الرسائل الأرقام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ١٤ على التوالى .

وهذا المخطوط — رغم نفاسته — فإنه لم يورد معظم الرسائل كاملة ، بل اكتفى بفصول منها . ولهذا كانت المخطوطات الأخرى أفضل منه فى الرسائل المشتركة بينها .

ولا شك فى أن مخطوط برلين التالى ذكره هو أفضل مخطوطات رسائل ابن باجة جميعاً : سواء من حيث صحة النص ، ومن حيث تمام الرسائل .

مخطوط برلين رقم ٥٠٦٠

فى فهرست ألفرت جـ ٤ ص ٣٩٦ — ٣٩٩
5060 = Weidemann 87

المخطوط يقع فى ٢١٩ ورقة من حجم الربع ، مسطرته ٢٨ سطراً ومقاسه ٢٧ ٢/٣ × ٢٠ ؛ ٢٢ ١/٢ × ١٤ سم .

وحالته سيئة ، وفيه نُقَرٌ من السمك ، والنص مصاب فى بعض المواضع .

ما فيه من الرسائل

قال ... فى شرح كتاب السماع

ويقع فى ٩ مقالات .

يبدأ هكذا : « قال أبو بكر : كل صناعة نظرية فلها على ما عُدِّد فى مواضع أُخَر ثلاثة أصناف ... » .

وينتهى فى ورقة ٧٩ ب هكذا : « ... وعلى التأليف فهذا هى ، لكن تنفرد بها المهن » .

قوله فى الاسطقسات

ورقة ٧٩ ب ويبدأ هكذا : « أول ما يجب لمن شرع فى النظر فى الاسطقسات أن يفحص هل ... » .

وينتهى هكذا : ورقة ٨١ ب : « ... فيشبه أن تكون الخاصية فتنعكس عليها » .

فى المزاج

ورقة ٨٢ ا ويبدأ هكذا : « قال : قصدنا فى هذا القول إحصاء أصناف المزاج من جهة ما هو ... » .

وينتهى ورقة ٨٣ ب هكذا : « والعصب والعروق فهى كلها يابسة » .

فى المزاج

ورقة ٨٣ ب يبدأ هكذا : « قصدنا فى هذا القول : النظر فى المزاج وإحصاء أصنافه ، وما يعرض له من جهة ما هو مزاج ... » .

وينتهى ورقة ٨٤ ب هكذا : « ... وإذا كان ذلك فبيِّن أن الشناعات اللاحقة لتلك » . وهنا نقص ترك له بياض .

شرح لأبى بكر . . . فى الفصول

يبدأ ورقة ٨٥ ا هكذا : « قصدنا فى هذا القول شرح ما أثبته أبقراط الطبيب فى كتابه المسمى بالفصول . وهذا الكتاب أيضاً وقع إلينا نصه مقروناً به تفسير جالينوس الطبيب له ؛ لكن ليس فيما أثبته كفاية فى فهم ما أثبته بقراط » .

ورقة ٩٠ ا ينتهى هكذا : « . . . ولذلك شاركهم الجمهور فيما انقسم لهم من ذلك القول » .

تعاليق فى الأدوية المفردة

ورقة ٩٠ ب ويبدأ : « سُئِل : ما غرض الصناعة الناظرة فى الأدوية المفردة ؟ وهل الذى أدرك جالينوس منها هو الغاية بالإضافة إلى الصناعة ، أم هو غاية بالإضافة إليه . . . » .

وتقع فى مقالتين . وليست كاملة وما بقى ينتهى هكذا ورقة ٩٧ ب : « . . . أمكن أن يدخل فيما طلبناه شىء ليس منه . ونبتدىء فنقول » .

المقالة فى الحميا

ورقة ٩٨ ب ، ويبدأ : « يسهل عليك تصور حمى العفونة الدائمة... » .

وينتهى ١٠١ ب هكذا : « ... الصفراء متوسطة فى الاجتماع ، لأن يبسها سبب للبطء ، وجفوفها سبب للسرعة » .

كتاب الكون والفساد

ورقة ١٠٢ ب ويبدأ : « قد تبين فى السماء والعالم أن أجساماً بسيطة أربعة وأنها متجانسة ومتضادة القوى ... » .

وينتهى ورقة ١١١ ب هكذا : « ولم تكن النار بسيطة كالهواء » .

ورقة ١٨١ ا وتبدأ هكذا : « قد تبين فى السماع الطبيعى بالأقاويل التى تعطى اليقين ... » .

وينتهى فى ورقة ١٨١ ب هكذا : « ... كان عند ذلك هو جميع المتقدمين » .

فى الوحدة والواحد

هذا العنوان لم يرد فى أول الرسالة ، بل فى ورقة ١٠٢ ا التى تحتوى على عنوانات الرسائل التالية فى المخطوط .

ورقة ١٨٢ ا يبدأ هكذا : « يجب أن نفحص عن الواحد وأصنافه ، وعلى كم نحوٍ يقال ، فإن ذلك يدخل الشك فيما تبين فى المعقولات أنها واحدة .. » .

وينتهى فى ورقة ١٨٣ ب هكذا : « وبالجملة فليعد قسما بنفسه من غير تقسيم » .

فى الفحص عن القوة النزوعية
وكيف هى ، وكم تنزع ، وكيف تنزع

ورقة ١٨٤ ا ويبدأ هكذا : « والنفس النزوعية إما أن تكون جنساً لثلاث قوى وهى النزوعية بالخيال .. » .

وتنتهى ورقة ١٩٠ ا هكذا : « تلك الحال إلاّ وهى متصلة بالمحرك كالقلم » .

رسالـة الوداع

ورقة ١٩٠ ب : « قال فى رسالة كتب بهـا إلى بعض إخوانه وهى رسالة الوداع » .

وتبدأ هكذا : « أطال الله بقاءك أيها الوزير الأجلّ ! إنى لمـا اعتزمت على الحركة ... » .

وينتهى ٢٠٠ ب هكذا : « ... وشرف همتك قد كمل ، فلا ينسب هذا إلا إليك ولا يعرف إلا بك كل المعانى » .

قول لأبى بكر يتلو « رسالة الوداع »

ورقة ٢٠١ ا ويبدأ : « قد لخصنا فى رسالة الوداع القول فى المحرك الأول فى الإنسان » .

وينتهى ورقة ٢٠٢ ب هكذا : « وذلك القول أخلق بذلك . وفيما قلناه كفاية » .

فى الهيئة

ورقة ٢٠٣ ا ويبدأ : « الهيئة — وهى جزء من علوم التعاليم — من الأمور ... » .

وينتهى ٢٠٤ ب هكذا : « ولذلك تكون الدوائر التى تكون عليها الشمس ... فى رأس » .

فى فنون شتى

ورقة ٢٠٤ ب ويبدأ : « من كلام أبى بكر رحمه الله عن الفرق بين العدم أو الضد بأن تجد ... » .

وينتهى ورقة ٢١٥ ب هكذا : « ... فى البراهين التى تنتج المتأخرة عن الموضوع » .

مقالة الاسكندر فى الرد على من يقول إن
الإبصار يكون بالشعاعات الخارجة من البصر

ورقة ٢١٦ ا وتبدأ هكذا : « قال : إن كان الإبصار إنما يكون بانبثاث الشعاعات وخروجها ... » .

وتنتهى ورقة ٢١٧ ب هكذا : « ولا حركة الصورة إلى البصر ولابهما جميعاً » .

مقالة الاسكندر فى اللون وأى شيء هو على رأي أرسطو

ورقة ٢١٨ ا ويبدأ هكذا : « قال الاسكندر : إن أرسطاطاليس حد اللون حداً قائماً فقال : إن اللون هو أفق البصر المحدود ... » .

وينتهى ورقة ٢١٩ ا هكذا : « إن اللون هو أفق المستشف المحدود تلخيصاً مختصراً مستقصى شافياً مقنعاً » .

وأوراق المخطوط تسير هكذا : ١ — ٤٢ ، ٦٦ — ٦٩ ، ٤٣ — ٦٥ ، ٧٠ حتى النهاية .

والخط مغربى ، كبير نوعاً ، مستوٍ ، وحسن وواضح ، وليس فيه شكل ، وأحياناً كثيرة بدون نقط .

وقد نسخه عبد الله بن محمد بن يحيي بن أصبغ الأنصارى فى شهر المحرم من سنة ٦٧٠ ه [= ١٢٧١ م] .

وقيل إن هذا المخطوط فقد من برلين أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ لكن توجد له على كل حال مصورات عند بعض الباحثين ، ومنهم أسين بلاثيوس كما أشار هو فى مقدمات نشراته لبعض هذه الرسائل .

مخطوط الاسكوريال برقم ٦١٢

ورد فيه لابن باجة الرسائل التالية :

— تعاليق على كتاب أبى نصر فى المدخل والفصول من إيساغوجى .

— تعاليق على كتاب بارارمنياس للفارابى[١] .
— كلام على أول البرهان .
— كتاب البرهان .
— تعاليق على كتاب المقولات لأبى نصر .

ولم يذكر ابن أبى أصيبعة (« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤) من هذه الرسائل غير رقم ٣ هكذا : « قول ذكر فيه التشوق الطبيعى وماهيته ، وابتدأ أن يعطى أسباب البرهان وحقيقته » — والعبارة غامضة جداً : فلسنا ندرى هل يذكر فيها كتابين ، أو كتاباً واحداً ؟ ولسنا ندرى أيضاً هل هو المذكور هنا فى رقم ٣ من مخطوط الاسكوريال .

مخطوط طشقند رقم ٢٣٨٥

أما مخطوط طشقند فقد حوى من رسائل ابن باجة :
— رسالة لأبى بكر محمد بن يحيى [= ابن باجة] فى المتحرك .
وتقع من ص ٣١٥ ب إلى ٣١٦ ا .
— < فى الوحدة والواحد > من ص ٣١٦ ا ، ٣١٧ ا .
ولم يرد لها عنوان ، بل أدمجت فى الرسالة السابقة .
— مقالة لأبى بكر محمد بن يحيى فى الفحص عن القوة النزوعية .
وتقع من ص ٣٤٣ ب — ٣٤٥ ا .
— تتمة المقالة السابقة ، وتبدأ هكذا : « ومن قوله يرحمه الله — فى القوة النزوعية » .

---

(١) كتاب شرح الفارابى على بارارمنياس نشره و. كوتش و س. مرو فى بيروت سنة ١٩٦٠
Commentary in Aristotle's *Peri Hermeneias* (De Interpretatione). Edited with an introduction by W. Kutsch and S. Marrow. (Rech. Instit. Lettres Orientales à Beyrouth, XIII). Beyrouth, 1960.

وهذه التتمة تقع من ص ٣٤٥ ب — ٣٤٧ ا .

وبعد استعراض مشتملات هذه المجموعات الأربع ، نذكر الآن ما تم نشره منها .

نشرات ابن باجة

(١) رسالة فى النبات

نشرها آسين بلاثيوس فى Al-Andalus المجلد الخامس سنة ١٩٤٠ ص ٢٥٥ — ٢٩٩ :

المقدمة من ص ٢٥٥ إلى ٢٦٥

النص العربى من ص ٢٦٦ — ٢٧٨

الترجمة الاسبانية للنص العربى ٢٧٩ — ٢٩٩

وقد نشر النص على أساس مخطوط برلين رقم ٥٠٦٠ ومخطوط اكسفورد رقم ٢٠٦ پوكوك

(٢) رسالة اتصال العقل بالإنسان

نشرها[١] أسين بلاثيوس فى Al-Andalus المجلد السابع سنة ١٩٤٢ من ص ١ — ٤٧ :

المقدمة : من ١ — ٨

النص العربى من ٩ — ٢٣

الترجمة الإسبانية للنص العربى ٢٤ — ٤٧

والنص العربى يوجد كاملا فى مخطوط برلين رقم ٥٠٦٠ من ورقة ١٧٩ ب — ١٨٥ ا

---

(١) وعن هذه النشرة طبعها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ضمن مجموعة عنوانها « تلخيص كتاب النفس لابن رشد » القاهرة سنة ١٩٥٠

أما مخطوط اكسفورد ، برقم ٢٠٦ پوكوك فلا يحتوى (ورقة ٢١٥ ب — ٢١٧ ا) غير بداية الرسالة .

(٣) رسالة الوداع

نشرها أسين بلاثيوس فى Al-Andalus المجلد الثامن سنة ١٩٤٣ من ص ١ — ٨٧ :

المقدمة من ١ — ١٤

النص العربى من ١٥ — ٤٠

الترجمة الاسبانية للنص العربى ٤١ — ٨٧

والنص العربى يوجد كاملا فى مخطوط برلين رقم ٥٠٦٠ من ورقة ١٩٧ ب — ٢٠٩ ب

أما فى مخطوط اكسفورد برقم ٢٠٦ پوكوك فتنقصه الأوراق السبع الأولى من الرسالة ، وباقيها يوجد فى ورقة ٢١٧ ا — ٢٢٢ ب .

ولهذا اعتمد أسين على مخطوط برلين .

(٤) تدبير المتوحد

نشره أسين بلاثيوس فى مدريد — غرناطة سنة ١٩٤٦ ضمن مطبوعات Consejo superior de investigaciones científicas, Instituto «Miguel Asín».

تحت عنوان El Régimen del Solitario, Por Avembuce, Edición y traducción de † Don Miguel Asín Palacios.

وقدم له بمقدمة فى ٩ — ١٨ ، وتلخيص ١٩ — ٣١ .

وترجم النص إلى الاسبانية من ٣٣ إلى ١٢٥

ونشر النص العربى تحت عنوان : « تدبير المتوحد لأبى بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ بن باجة .

ويقع من ص ٣ إلى ٨٦ على الحين بترقيم خاص بالنص العربى .

(٥) كتاب النفس

نشره الدكتور محمد صغير حسن المعصومى ضمن « مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق » ، دمشق سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

وقدم للنشرة بمقدمة من ٣ — ١٨

ونشر النص من ١٩ إلى ١٤٩ وعلق عليه بتعليقات .

ونشرته على أساس مخطوط أكسفورد رقم ٢٠٦ پوكوك Pocock 206 وعنوان هذه المجموعة المخطوطة هو : « مجموعة من كلام الشيخ الإمام العالم الكامل الفاضل الوزير أبى بكر محمد بن باجة الأندلسى رضى الله عنه » وعدد أوراقها المكتوبة ٢٢٢ ، وكل صفحة مقاس ٣¾ y ٧½ بوصة ، وتحتوى على ٢٧ وأحياناً ٣٢ سطراً .

وكاتب النسخة هو الأديب القاضى الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن النضر ، انتسخها بقوص فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٧ هـ ، وقابلها بالنسخة الأصلية لابن الامام الذى قرأ نسخته على المصنف ، وتمت قراءته فى الخامس عشر من رمضان المبارك سنة ٥٣٠ هـ ، أى قبل موت ابن باجة بثلاث سنين .

ويقع كتاب النفس فى هذة المجموعة فى ٢٦ ورقة من ورقة ١٣٨ ب إلى ١٦٥ ا

(٦) فى الغاية الإنسانية

وفى عام ١٩٦٨ نشر الدكتور ماجد فخرى مجموعة من رسائل ابن باجة تحت عنوان عام هو : « رسائل ابن باجة الإلهية » (دار النهار للنشر ، بيروت — لبنان ، سنة ١٩٦٨ فى ١٩٩ ص) .

وفى هذه المجموعة أعاد نشر :

— تدبير المتوحد .

— رسالة الوداع .

— إتصال العقل بالإنسان .

مع مزيد من التصحيحات فى النص وبالاستناد إلى النشرات السابقة . ونشر لأول مرة عن مخطوط بودلى فى أوكسفورد (رقم ٢٠٦ پوكوك) الرسائل التالية :

— فى الغاية الإنسانية (ص ٩٩ — ١٠٤) .

— قول له يتلو رسالة الوداع .

— فى الأمور التى يمكن بها الوقوف على العقل الفعال .

(٧) قول له يتلو رسالة الوداع

فى النشرة السابقة ص ١٤٧ — ١٥٢

(٨) فى الأمور التى يمكن بها الوقوف على العقل الفعال

فى النشرة السابقة ص ١٠٧ — ١٠٩

الرسائل التى ننشرها :

والرسائل التى ننشرها هى كل ما ورد فى مخطوط طشقند رقم ٢٣٨٥ ومن بينها اثنتان توجدان أيضاً فى مخطوط برلين رقم ٥٠٦٠ وهما :

— « فى الوحدة والواحد » (ورقة ١٨٢ ا — ١٨٣ ب فى مخطوط برلين) .

— « فى الفحص عن القوة النزوعية » (ورقة ١٨٤ ا — ١٩٠ ا فى مخطوط برلين) .

وأما الثالثة فينفرد بها مخطوط طشقند وهى رسالة فى «المتحرك» .

ولم يرد فى الثبت الذى أورده ابن أبى أصيبعة («عيون الأنباء» ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤) من أسماء هذه الرسائل غير اسم الرسالة الثانية تحت عنوان: «قول على القوة النزوعية» . ثم إنه أورد اسم رسالة أخرى بعنوان: «كلامه فى الفحص عن النفس النزوعية وكيف هى، ولم تنزع، وبماذا تنزع» ، وهو عنوان مشابه لعنوان رسالتنا هذه ، ولكننا لا نستطيع أن نقرر هل هما عنوانان لنفس الرسالة ، أو لرسالتين مختلفتين .

أما رسالة «فى الوحدة والواحد» فيشهد على صحة نسبتها إلى ابن باجة :

أولا : أنها نسبت إليه فى مخطوط برلين إلى جانب مخطوط طشقند ، وهما مخطوطان مستقلان .

ثانياً : أن لابن باجة كلاماً فى الوحدة والواحد فى مستهل رسالته «فى اتصال العقل بالإنسان» (ص ١٥٥ — ١٥٧ من نشرة ماجد فخرى ، بيروت سنة ١٩٦٨) يدل على اهتمام ابن باجة بهذه المسألة . وعلى الرغم من أنه لم يشر فى رسالة «اتصال العقل بالإنسان» إلى رسالة «الوحدة والواحد» على عادته فى الإشارة إلى رسائله ، فإن هذا مرجعه فيما نرجح إلى أن رسالة «الوحدة والواحد» لاحقة فى التأليف على رسالة «فى اتصال العقل بالإنسان» . على أن التشابه ظاهر جداً بين كلامه فى رسالة «اتصال العقل بالانسان» عن الوحدة ، وبين بحثه فى رسالتنا هذه . وفى هذه الأخيرة يعتمد — كعادته دائماً — على أقوال أرسطوطاليس وأبى نصر الفارابى : الأول فى مقالة الدلتا من كتاب «ما بعد الطبيعة» (الفصل السادس) ؛ والثانى ، أعنى الفارابى ، فى رسالة له بعنوان : «كتاب الواحد والوحدة» ، ذكرها ابن أبى أصيبعة (ج ٢ ص ١٣٩ القاهرة سنة ١٨٨٢) ، ومنها نسخة فى أياصوفيا باستنبول برقمى ٤٨٣٩ ، ٤٨٥٤

ورسالته « فى المتحرك » يشهد على صحتها أنها تشير دائماً إلى رسائل لابن باجة على أنها لنفس مؤلف رسالة فى المتحرك . فقد ورد فيها : « وقد بينا ذلك كله فى « سيرة المتوحد » » ؛ « وقد بينا فى « سيرة المتوحد» . . . » ؛ « وقد تبين من تلك الاقاويل فى « رسالة الوداع » تناسب الحركات ... » ؛ « وهذه أصناف قد لخصنا القول فيها فى « سيرة المتوحد » وتبيّن هناك... » الخ وكل هذا يقطع بأن مؤلف رسالة « فى المتحرك » هو بعينه مؤلف رسائل : « سيرة المتوحد » ، و « رسالة الوداع » ، أى ابن باجة .

وهكذا يثبت قطعاً صحة نسبة هذه الرسائل الثلاث — التى ننشرها هنا — إلى ابن باجّة .

[٣١٥ ب]

رسالة لأبى بكر محمد بن يحيى فى المتحرك

قال أبو بكر محمد بن يحيى :

قد تبين فى « السماع الطبيعى » بالأقاويل التى تعطى اليقين أن كل حركة تكون عن أكثر من محرك[١] — وهى التى لا يتحرك فيها المتحرك بنفسه ، بل بغيره — فإنها منسوبة إلى المحرك الأول خاصة دون سائر المحركين . وذلك أيضاً بَيّنٌ قريب بنفسه . وهذه القضية الكلية الصادقة يعترف بها الجمهور عند أخذها فى موادها ، فلذلك يقولون : قتل الرشيد[٢] جعفراً ، كما يقولون : قتل المنصور أبا مسلم — وإن كان القاتل الأقرب لجعفر « مسروراً » أو من ائتمر له ، وقاتل أبى مسلم المنصور بيده ، ولا ينظرون إلى المحرك الأقرب ، ولا يحفلون به فى ذم أو حمد ، اللهم إلا فيما كان للأقرب فيه موقع من الاختيار ، فلذلك هو فى بعض الأمور يجرى مجرى الأول ؛ فإن الأول إنما يعتقد فيه أنه بهذه الصفة . فإنه قد تبين من الثامنة من « السماع » أن المحرك الأول على التحقيق هو محرك الحركة السرمدية ، لكنه بالإضافة إلى حركةٍ حركةٍ من الكائنة الفاسدة بالعرض ، لا بالذات . ولذلك يقال اللوم والحمد على ما حرك بالعَرض . ولذلك كان فى الشريعة عقابُ قاتل الخطأ غير عقاب قاتل العمد .

وأما الآلات فليس لها فى وجود تلك الحركة حَمدٌ أو ذم ، اللهم إلا فى بعض أحوالها . وسواء كانت المحركات المتوسطات أجساماً غير متنفسة أو أجساماً

---

(١) ط : تحرك .

(٢) الرشيد : هارون الرشيد . جعفر : جعفر البرمكى . المنصور : أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى . أبا مسلم : أبو مسلم الخراسانى الذى قام بالدعوة للعباسيين . ومسرق : حاجب الرشيد .

متنفسة . ناطقة كانت ، أو غير ناطقة . وإن مَن ذَمَّ أو حَمِد المحرك القريب فهو كما يذكر أفلاطون فى الكلب أنه يعض الحجر الذى يُرْمى به ويترك الأمر ؛ اللهم إلا إن كانت الآلة المتنفسة بحيث يمكن أن يعتقد فيها أنها أول محرك . وهذا كله بين بنفسه ويقينى معروف موثوق به .

وظاهر أيضاً مما تبين هناك وتبين فى كتاب « الحيوان » وكتاب « النفس » و <ما> كتبناه نحن فى « رسالة الوداع[1] » وفى أقاويل لنا غيرها أن المحرك الأول فى الحيوان هو النفس . وهذا أيضاً إذا تأمله الناظر أدنى تأمل وضح له وتيقنه .

وقد تلخص فى الأقاويل التى كتبت « فى النفس » أن المحرك الأول للحيوان هو النفس النزوعية . وهما صنفان متقابلان لهما فعلان متقابلان : أحدهما لا اسم لجنسه ، فلنسميه على الاطلاق : المحبة ، ومنها يكون الطلب والامساك . وفى هذا الجنس تدخل [٣١٦ ا] الشهوة الغذائية والغضب وسائر الأصناف الأخر . والصنف الثانى : الكراهة ، وبها يكون الهرب أو الترك ، وفيها يدخل الخوف والسأم والملال وما جانسه . وتبين هنـاك بالأقاويل اليقينية أن سبب هذه هى النفس الخيالية . وقد لخص هناك أصنافها . وهذه كلها توجد للانسان إذا كان حيواناً . ويختص الانسان بالحركة الاختيارية ، وهى التى تكون عن النطق وبها ينسب إلى الإنسان الخطأ والصواب ، وبها يحوز الصناعة .

وهذه أصنافٌ قد لخصنا القول فيها فى « سيرة المتوحد » وتبين هناك أن الحركة الإنسانية الخاصة بالانسان هى التى تكون عن الأمور التى توجبها الروية الصادقة ، وتبين[2] هناك أن الروية إنما تكون ضرورةً نحو أمرٍ ما ، وأنها نحو غاية ما ، وهى الخير بالاطلاق ، فإن هذا الخير هو معشوق بالطبع محبوب

---

(١) « رسالة الوداع » فى « رسائل ابن باجة الفلسفية ص ١١٥ بيروت سنة ١٩٦٨

(٢) ط : بين .

للكل . فالحيوان البهيمى إذاً لم يعط النطق ، وهو الذى يعرف الخير بالإطلاق ، جعل له معرفة الخير مقترنة بالمواد ، وذلك بالحس وبالتوهم . فأما الانسان فإنه يعرف الخير من مؤلفه ويعلمه مجرداً . ولذلك متى اشتهى الانسان شيئاً أو كرهه ، ثم علم بوجه ما أن ذلك الشىء خير ، ترك ما اشتهى وطلب ما كره فى أكثر الأمر . فإن لم يفعل ذلك كان ذلك من فعله سفهاً وتعباً وضلالاً وما شاكل هذه الأصناف ، إذ لهذا الصنف اسم يعمها ، وكان فعله ذلك حيوانياً لا إنسانياً .

وقد بينا ذلك كله فى « سيرة المتوحد[١] » .

فالمحرك الأول على الإطلاق فى الإنسان هو النفس وأجزاؤها . وأما الجسد فهو مجموع الآلات ؛ وإن مجموع الآلة الطبيعية هو البدن . ولذلك الحيوان قد يموت ولم يعدم من جسده عضواً ، كما قد يغيب البخار ولا يعدم من آلاته آلة . غير أن الفعل لا يتم لها إذ المحرك الأول قد عدم .

وقد بينا فى « سيرة المتوحد » أن الإنسان يقال أولا فى المعرفة بالجنس : للجسد ، ولذلك يسمى الميت حيواناً باسم الجنس للجسد ، ونظن ذلك على طريق التواطؤ . ولهذا السبب تكرم جثث الموتى . ويقال ثانياً على النفس . ولهذا يقول سقراط قبل < وفاته > لمن حضره : فتكفلوا بى ، أو يظن على خلاف الكفالة التى تكفلت فى الحكام ، إلى سائر ما قاله فى هذا الفصل . فإن سقراط يقول : إن الذى فى موضعه عما قليل ليس بسقراط لكنه جثته ، وأما سقراط فإنه ذهب مبادراً مسرعاً .

وقد تبين من تلك الأقاويل فى رسالة « الوداع[٢] » تناسب المحركات التى

---

(١) الموضوع كله تناوله ابن باجة فى « تدبير المتوحد » دون إمكان تحديد مواضع يعينها فيه تناظر ما يقوله هنا . والأقرب إليها هو الفصل الثانى ص ٤٥ — ٤٨ في نشرة ماجد فخرى : «رسائل ابن باجة الإلهية» ، بيروت ١٩٦٨

(٢) راجع « رسائل ابن باجة الإلهية » ص ١٢٤ — ١٢٨

فى الإنسان . وإذ ذلك كذلك فظاهر أن الخير موجود بنفسه غير مائت ولا بالٍ ، وأنه معشوق فى الطبيعة ، وأن الحركة عنه وإليه هى أفضل الأمور الموجودة للانسان من جهة ما هو ذو جسد ، وأن حصوله أفضل الامور الموجودة للانسان بالإطلاق ، وأنه سواء عنه وجوده له — كان ذا بدنٍ ، أو غير ذى بدن . بل الأفضل له أن يكون غير ذى بدن ، اللهم إلا من جهة ما يحرك : فإنه لا يمكن أن يحرك أو يكون[1] ذا بدن . فإن البدن إنما كان له ليحصل له هذا الخير . فهو آلته التى بها يتحرك . فهو له كالسفينة التى بها يتحرك الملاحون . فإذا حصل ، كان عند ذلك البدن آلة بهـا يحرك غيره ، ولم يكن له فى وجوده الأخص أثر ، اللهم إلا فى وجوده محركا ، فإن كونه غاية وفاعلاً غير وجوده غاية . ولذلك متى ترك البدن كان غاية فقط . فإذا حصل من إنسان آخر فى هذه الرتبة ، كان عند ذلك هو جميع المتقدمين .

---

(١) أى : إلا إذا كان ذا بدن .

< فى الوحدة والواحد* >

يجب أن يُفحص عن الواحد وأصنافه ، وعلى كم نحوٍ يقال . فإن ذلك يدخل الشك فيما تبين فى المعقولات أنها واحدة . وإن أرسطو والفارابى قبل[١] وأخذ يبين ذلك ، وبالجملة فى الأجناس والأنواع ، فائدة القول فى هذا النحو . فإن محمول القضية قد ظهر إذا [٢] الارتياب الموجود فى النفس ، فهو النفس مما يكون[٣] بذلك فى هذا النحو يكون[٣] . وكذلك يجب أن يتحرر فى العلم الطبيعى عندما نبرهن فيه على الأنواع التى لها شخص واحد : إما الذى للشمس والقمر ، وإما يكون[٣] كالأرض : فإن الأرض إنما يوجد لها شخص واحد كلى ، وهى تعتبر[٤] بأجزائها ، وكذلك الهواء ؛ والأرض فى ذلك أشد تغليطاً ، فإن البيان على الكلى ، لا على الشخصى ، حتى لو كان للشمس مثلا أشخاص كثيرة لكانت تتحرك على خارج المركز ، فعند ذلك تكون المقدمات ذاتية . وإن أخذت على أنها ذلك الشخص لم تكن المقدمة ذاتية على هذا النحو ، وكانت علمية بالعَرَض . وعند ذلك يمكن أن تكون — بهذا — المقدماتُ ذاتية . وإن أخذت على أنها ذلك الشخص لم تكن المقدمة — سواء كانت أولى أو نتائج — باقية فى الحدود بالذات .

---

* لم يرد لهذه الرسالة عنوان فى مخطوطة طشقند هذه رقم ٢٣٨٥ ، بل تتابع الكلام دون تمييز هكذا : « جميع المتقدمين يجب أن يفحص عن الواحد . . . » فاختلط النص بنص الرسالة السابقة التى هى « فى المتحرك » .

(١) ط : مىل واحد ىعسه ذلك وبالجملة .

(٢) بياض فى المخطوط .

(٣) ط : مكورى (!)

(٤) ط : ىعىں .

فحص : العدد هو المجتمع من الواحد ومن الكثير . وأعنى بقولى : « المجتمع » : المتقدم ، كما يقال : الحيوان يجتمع من المتغذى والحساس . وليس فى العدد معنى غير هذين . ونجد الأعداد إذا [٣١٦ ب] تكثرت وجد بذلك أمور كثيرة مختلفة : فأولها الزوج والفرد ، والجذر والمربع والمكعب ، وبالجملة فالمجتمع والمسطح والأول والمركب والمباين والمشارك والتام والناقص والزائد والمتحاب وسائر ما يلزم هذه . فقد يجب أن ننظر كيف لحقت هذه اللواحق المختلفة أجناسها لما تركب من معنيين . والواحد قد يكون شخصاً مشاراً إليه كزيد وعمرو وهذا البياض وتلك الاستدارة ؛ وقد يكون صوراً روحانية كالاسكندر وُتبع ؛ وقد يكون أنواعاً . وبالجملة فأمور معقولة كالخمسة والستة والإنسان والفرس وبذلك نقول إن القطوع ثلاثة ، وإن ذوات الأضلاع الأربعة خمسة أنواع . والواحد الموضوع للعدد الذى يجرى منه مجرى الهيولى فليس بواحد فى هذه ضرورة ، بل هو معنى الوحدة فى موضوع ، سواء كان هيولانياً أو روحانياً أو معقولاً ، لأن الوحدة هنا تقال فى موضوع ، اللهم إلا فيما وجوده أنه واحد . فإن برهن أن شيئاً بهذه الصفة دل فيه الوحدة على ما يدل الواحد . وظاهر أن ما هذه سبيله فليس موضوعاً لعدد ، إذ لا يستكثر . فإن التكثر إنما لحق الواحد من أجل الهيولى . فالواحد الموضوع للعدد فيه ضرورة أمرٍ يجرى مجرى الهيولى . وإذا كان الواحد يلحق المعقولات فالمعقول يجرى مجرى الهيولى .

وظاهر هنا أن الواحد يقال باشتراك — على المعقولات وعلى الموجودات الهيولانية . وقد تلخص فى غير هذا الموضع أن الواحد يقال على المعقول بتقديم ، وعلى الهيولى بتأخير ، لكن ليس فى الزمان . ويتبين هنا مما قلناه إذا نظر فيه أيسر نظر أن العدد يقال على الهيولانية بنحوى التقدم ، وعلى المعقولات بالتأخر وعلى طريق التشبيه . فلينظر فى اللاحق للمعقولات . فالواحد المعقول هو متقدم

من معقولين : أحدهما يجرى مجرى الهيولى ، والآخر يجرى مجرى الصورة . وهذا غير نوع مما يوجد فى العقل ، فإن العقل قد يكون موضوعاً ، فإن الموضوع والمحمول هذه حال أحدهما من الآخر ؛ فإن المحمول صورة الموضوع . وقد يكون ذلك المحمول موضوعاً كالحد الأوسط فى الشكل الأول . فما أحسن ما شبهه أرسطو بالخط المستقيم المنطوى بعضه على بعض ! وإلى هذا المعنى أشار أفلاطون عند محاكاته إياه بالدوائر اللولبية .

وإن نحن فرضنا أن ذلك يعرض فى كل معقول لزم من ذلك ما لا نهاية معاً فى الوجود ، وذلك محالٌ لا مزيد فيه . فإذا انتهى ضرورة إلى عقل لا يمكن أن يوضع فيقبل منه شىء ، بل إن عقل فذاته ، حتى يكون معنى عقل ومعقول فيه واحداً . فهذا هو الذى يلزمه القول إن هناك شيئاً أو عقلا وهو بهذه الصفة . وهذا القول رسم ، فإنه لا يتقدم ذلك المعنى بأنه لا يعقل منه غيره ، بل هذه كلها بسبب يلحقه وإعدام لسبب . والذى يظهر من القول أنه أخص به فهو الحد الذى يجرى مجرى نتيجة برهان ، وهو المقام مقام الجنس ، وهو المدلول عليه بقولنا : عقل . لكن هذا ليس بجنس ، بل هو إسم مشكك فإنه أخص من قولنا : شىء ، إذ « الشىء » يدل على الهيولانى وغير الهيولانى ، و « عقل » يدل على ما ليس بذى هيولى . فإذا بدل من هذا الموجود على جهته يمكن أن يتصور بها بنحو أخص .

فأما أى عقل هذا العقل ، وكيف لنا < أن > نتصوره التصور الأتم بحسب طباع الإنسان ، وهل تصوره الأكمل هو بحسب طباعنا أو بحسب طبيعته . فإن كان بحسب طبيعته فهو تصور تام من حيث هو موجود . وإن كان بحسب طباعنا كان التصور فى نفسه أتم ، إذ لا يمكن أن يكون أنقص فإنه ليس بذى هيولى : كالزمان والحركة والمكان وسائر الموجودات الناقصة . فأما هل تصور الموجودات الناقصة الوجود بحسب طباعنا أو بحسب طباعها ،

ففيه موضع لحص وعويصه . فأما الكاملة فقد لخص القول فيها أرسطو فى « ما بعد الطبيعة » ، وذكر ذلك مرسلا فى المقالة الأولى من كتابه « فى الفلسفة الأولى » . وقد ذكره أبو نصر[١] وغيره وأرشد إليه . وهذا القول جرت العادة أن يقال فى التصورات الناقصة ، إما لأنها ناقصة كذلك بطباعها ، أو لأنها كذلك من أجل طباعنا . فنقول إن المعقولات الأولى التى تفيدنا إياها الطبيعة من غير سعى لنا فى ذلك نعتمده ولا تفكير فهى المبادىء الأول فى الفكرة والروية ، وبها يسمى الجسم الموجودة فيه هذه « إنساناً » مطلقاً بتواطؤ ، فهى المقولات . فإن أى حيوان لم توجد فيه هذه إما اتفاقية بالقوة وهو كذلك بالطبع كالجنين ساعة يولد ، أو بالعرض كما حد أصناف المعنوى ، فإن ذينك ليس واحد منها إنساناً بالإطلاق ؛ فأن سمى « إنساناً » فعلى الجهة التى يسمى الجنين عند كمال الخلقة فى الرحم إنساناً ، وإنما هو إنسان متكون ، والآخر إنسان خارج عن الطبع . وتلخيص الجهة التى[٢] يقال عليها تساؤلا وللانسان الطبيعى إنسان فيما نحن بسبيله فضل ، إذ ذلك غير عسير على من شاءه . [١٣١٧] فالمقولات هى تصورات لأمور موجودة فى أجسام محسوسة . فكل واحدة منها صورة مجردة عن الهيولى ، لكن لا تفيدها الطبيعة إلا مقترنة بموضوعها بها غير مجردة عنها وغير متصورة مكتفية بأنفسها ، كما نجد ذلك عند الصبى أول ما يعبر عما فى نفسه فيسأل ويجيب . فإنه إذا سئل عن محسوس واحد بعينه كم هو ، وأين هو ، وكيف هو ، ومتى كان — أجاب عن كل سؤال بواحدة من أنواع المقولات الخاصة بذلك السؤال أو أجناسها المتوسطة أو أى[٣] شىء منها . ثم بعد هذا الحال تصير له حال أخرى ، وهى التى

(١) = الفارابى .
(٢) ط : الذى .
(٣) ط : أو أشىء منها .

تسمى الروية : تركب وتفصل وتفتش ؛ وبالجملة فهو في الحالة الأولى الطبيعية إنما يسلك العقل عنده على خط مستقيم غير منقسم ، وكذلك ما لم تحصل له الروية النظرية أو من العملية الجزء الذى يشارك فيها النظرية . فإذا حدث له شىء من النظرية فقد قسم الخط بنصفين ، وثنى أحد النصفين على الآخر وعرج العقل فى سلوكه على دائرة إلى سلوكه على خط لولبى ؛ وهو عند ذلك يجعل العقل شيئاً ما موجوداً ، أو يقيمه مقام الموجودات الهيولانية ويكون العقل فى حال وضعه مؤلفاً من شيئين : المحمول ، وبه يصير معقولا ، وفى الحال التى بها صار موضوعاً . فإن الموضوع إن كان هو والمحمول واحداً من جميع الجهات لم يك ذلك محمولا وهذا موضوعاً ، ولا كان المؤلف منهما قضية . فلذلك لا يصدق ولا يكذب . وإنما يكونان اسمين مترادفين . وقد تلخص ذلك فى كتاب « الحروف[١] » .

المعقول يوجد موضوعاً بوجوه : أحدها غير ما يحمل عليه حده أو أجزاء حده التامة ، مثل قولنا : الكرسى جسمٌ من خشب صنع ليجلس عليه ؛ وقولنا : الكرسى جسم ؛ والثانى عندما تحمل عليه الأعراض ، كقولنا : الكرسى طويل أو عريض ؛ وعندما تحمل عليه الأحوال المنطقية كقولنا : الكرسى جنس متوسط ؛ أو عند ما نفحص عنه كيف وجوده المعقول ، لا كيف وجوده الهيولانى . فإن الفحص عن وجهه الهيولانى وهو وجوده فى أشخاصه ، يقف بنا على ما هو العقل بالفعل ، لأنه لا فرق عند ذلك بين وجود الكرسى وبين وجود الإنسان من حيث هما معقولان . وهناك وجوه أخر تعديدها فيما نحن بسبيله فضل لا يحتاج إليه . فلنقتصر من أصناف الحمل على هذه ، ولنفصل القول فيها ، فعند ذلك تظهر لنا الحال التى حاكاها أفلاطون بالسلوك على الدوائر اللولبية ، وأرسطو بانثناء الخط المستقيم .

---

(١) « كتاب الحروف » = « ما بعد الطبيعة » .

وجميع أنواع الحمل إذا أحصيت الإحصاء اللائق بهذا الفحص كانت إما حمل موجود فى مشار إليه على موجود مشار إليه كيف كان ، أو يستند إلى مشار إليه . وأقسامه :

ا — حمل الجنس والفصل على النوع .

ب — حمل الحد على النوع .

ج — حمل العرض على النوع .

د — الحمل من طريق ما هو على الشخص .

ه — الحمل من طريق ما هو على الشخص أو حمل ما ليس مشاراً إليه على ما ليس بمشار إليه ولا من جهة أنه فى مشار إليه ، بل من جهة ما تتنزل المعقولات بمنزلة الموجودات ، فيكون المعقول يجرى مجرى الشخص ؛ وذلك حمل الأحوال المنطقية على المعقولات الأول ، كقولنا : الحيوان : جنس ، والناطق : فصل . وهذا يدخل فى حمل العرض على الشخص ، فليعد فى القسم الخامس . والثانى حمل ما يجرى فى هذه من طريق أنها موجودات تتنزل منزلة الأشخاص . والدلالة على المعقولات من هذه الجهة غير معروف فى لسان العرب ، وأَحْرِ بأن يكون كذلك فى سائر الألسنة ، وهو فى طلبنا هذا المعنى الكلى الذى يحمله على كثيرين ، وهو ما يدل عليه بلفظ : إنسان ، أو فرس ما هو وما قوامه . فهو من جهة يعد فى القسم الثانى ، ومن جهة أخرى يليق أن يعد فى الرابع ؛ إلا أنه بالقسم الثانى أحرى وأليق . وبالجملة فليعد قسماً بنفسه من غير تقسيم .

[٣٤٣ب]

مقالة لأبى بكر محمد بن يحيى
فى الفحص عن القوة النزوعية

ومن كلام أبى بكر محمد بن يحيى — رحمه الله — فى الفحص عن القوة النزوعية ، وكيف هى ، ولِمَ تنزع ، وبماذا تنزع :

والنفس النزوعية إما أن تكون جنساً لثلاث قوى : وهى النزوعية بالخيال ، وبها تكون التربية للأولاد والتحرك إلى أشخاص المساكن والإلف والعشق وما يجرى مجراه ؛ والنزوعية بالنفس المتوسطة ، وبها الغذاء والدثار ، وجميع الصنائع داخلة فى هذه . وهاتان مشتركتان للحيوان . <و> منها النزوعية التى تشعر بالنطق ، وبها يكون التعليم والتعلم : وهذه يختص بها الإنسان فقط . وإما أن يقال على هذه الثلاث بتقديم وتأخير .

وبين أن كل حيوان ساع فله النفس النزوعية المتوسطة ، وبها يشتاق الغذاء . وقد يوجد من الحيوان ما ليس له تشوق الخيالية . فتشوق النزوعية المتوسطة متقدم بالطبع للنزوعية الخيالية . وظاهر أن كل إنسان على المجرى الطبيعى فله هاتان القوتان . فهاتان القوتان تتقدمان النزوعية الناطقة بالطبع .

وقد تبين فى الثانية أن كل متحرك فله محرك ، ومحركه غيره ، وتلخص هناك أجناس المحرك : فالمحرك(١) قد يكون محركاً بالطبع ، وقد يكون خارجاً عن الطبع . أما المحرك بالطبع فكالنار ، وأما الخارج عن الطبع فكسهم المنجنيق . وكذلك المتحرك قد يتحرك خارجاً عن الطبع كالحجر إلى فوق ، وقد يتحرك بالطبع كالحار بالقوة والجاهل إلى العلم . والمتحرك بالطبع : إما من

(١) ط : والمحرك .

ذاته ، وهو ما كان محركه فيه ؛ وإما من غيره ، وهو ما كان محركه خارجاً عنه . وأعنى < بقولى : > فيه : أن يكون محركه به وجود [٣٤٤ ا] ذلك المتحرك من حيث هو ذلك النوع من الجواهر الجسمانية حتى يكون به قوام ذلك الجوهر ويكون داخلاً فى حده كالخيال والحيوان . وهذا قد يكون طبيعياً وبذاته ، وهو كأصناف الحيوان ؛ وقد يكون صناعياً كالماء فى المنكانه[١] ، والصناعى فهو داخل فيها بالعرض وخارج عن الطبع ؛ فهناك جرت العادة بتحديد وتلخيص القول فيه فى موضع آخر .

والمتحرك من ذاته فبين أنه مقوم من المحرك والمتحرك . فما كان غير مقوم من هذين فليس بمتحرك من ذاته ، مثال ذلك : الحجر ، فإن المحرك ليس فيه بذاته لكنه فيه من خارج عن ذاته وبالقسر ؛ فإن الذى للحجر بذاته فكونه أسفل ، وإذا كان كذلك فليس بمتحرك . فإذا كان فوق فوجوده إنما هو بقاسر يقسره . فإذا انتهى القاسر تحرك إلى أسفل . فلذلك يحتاج فى الحجر ضرورة إذا تحرك أن يكون أسفل بالقوة ، ولا يكون أسفل بالقوة إلا بأحد وجهين : أحدهما طبيعى ، وهو متى كان الحجر أرضاً بالقوة وهو متى كان بالفعل ناراً أو هواء أو ماء وكان فوق بالفعل وأسفل بالقوة . وهذه القوة فى النار من حيث هى نار بالطبع ، لأن للنار بذاتها أن تكون فوق بالفعل ، ويلزم أن تكون أسفل بالقوة من أجل الهيولى الأولى المشتركة . وقد تكون أسفل بالقوة : وهو إذا كانت أرضاً بالفعل فأمسكها ماسك فوق ، فهذه القوة للحجر ليست طبيعية لكنها بالطبع من أجل الهيولى المشتركة . وقد بين أبو

---

(١) من الكلمة الفارسية بنكان = Clepsydre ، وتكتب فى العربية أيضاً « بنكام » (راجع حاجى خليفة ج ٢ ص ٦٩ ، طبعة فلوجل) و « فنجان » ومكانة ، ومنكلة ، ومنعالة ، ومنقالة ، ومنقانة ، ومنجانه ، وهى « آلة تؤخذ بها الأوقات » ، وهى الساعة . راجع دوزى : « تكملة المعاجم العربية » ج ٢ ص ٦١٧ . وقد صنف ابن الهيثم « مقالة فى عمل البنكام » (ابن أبى أصيبعة ج ٢) .

نصر فى كتابه فى « الموجودات المتغيرة[١] » كيف يصير ما هو بالقوة الطبيعية أسفل أسفل[٢] بالفعل ، وكيف يتحرك ويحركه محرك ، فليؤخذ علم ذاك من هناك . فإذن الأرض تحتاج إلى المتحرك . فأما الأرض إذا تحركت إلى فوق فهى أسفل بالفعل ، وقوتها على فوق قوة طبيعية ، لكن لا على أنها حجر . فأما قوتهـا على فوق وهى حجر فهى لها بالطبع على وجه ما قد لُخص فى غير هذا الموضع ، فيحتاج إلى محرك قاسر . فإذن ما كان له المتحرك والمحرك طبيعيين فهو يتحرك بذاته كحركة الحيوان المكانية ، لأن ذلك لا يمكن أن يكون إلا فى الحركة المكانية فقط . فأما الاستحالة فليس يجتمع المحرك والمتحرك فى شىء بالطبع . والفحص عن ذلك يليق بغير هذا الموضع كتحريك الصانع — مثال ذلك أن يكون الطبيب مريضاً : فهاهنا يجتمع المحرك والمتحرك ويتطبب المريض من ذاته ، لكن ليس ذلك بالذات بل بالاتفاق .

فيكن هذا ابتداءً لمـا نريد أن نقوله فنقول : إنه من البين المقدور به أن الحجر إذا زال القاسر يتحرك إلى أسفل وكان هبوطه شافعاً لزوال القسر وزوال القاسر مبدأ . وقد تبين فى الثامنة أن مزيل القاسر محرك بوجه ما ، فإن الحجر إنما يتحرك العائق وبالثقل فى كلاهما محرك ، كان مبدأ الحركة كما تبين هنالك إنما هو من مزيل العائق ، وعند ذلك صار للحجر ما كان له أن يكون ، فإن الثقل ليس بمحرك بطبيعته ، إذ لو كان محركاً بطبيعته لكان له متحرك بالطبيعة ، والمتحرك عنه إنما هو بالقسر . ومن هنا تبين ما قاله أرسطو فى الثامنة أن الجمادات كلها ليس تفعل ، بل تنفعل . فأما كيف حرك الثقل الحجر فنحن نقول فيه . وقد تبين فى مواضع كثيرة أن الهيولى الأولى لا

---

(١) ذكره ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ص ٦٠٨ س ٣ من أسفل طبعة بيروت سنة ١٩٦٥

(٢) مكررة فى المخطوط .

صورة لها ، ولا هى شىء موجود بالفعل أصلا ، وإنما وجودها أبداً بالقوة أحد المقولات العشر ، وهذا هو مرتبتها فى الموجودات ؛ وتبين أيضاً أن الوجود ينقسم إلى المقولات العشر ، وأن الجوهر الكائن الفاسد قوامه بهذا الموضع الذى هو الهيولى الأولى ؛ وبمعنى آخر هو به موجود ، وهو الصورة . فالهيولى يوجد فيها ضرورة أكثر من مقولة واحدة . فإنه ليس يمكن أن يوجد جوهر هيولى خلواً من أعراض كثيرة ، مثل أن يكون ذا كم ، وذا أين ، وذا كيف — إلى غير ذلك من أجناس المقولات العشر . لكن يتقدم فى الهيولى ضرورة أحد أنواع الجوهر . ولذلك يوجد فى الهيولى ما يوجد منها من أنواع المقولات التسع . وقوام ما فى المقولات إنما هو ما فى مقولة الجوهر . وما فى مقولة الجوهر يوجد فى حدود ما فى المقولات التسع . ولا يمكن أن يكون شىء ما من المقولات التسع وقوامه خلواً من الجوهر . وبهذا يفارق الجوهر الأعراض ، فإن الجوهر إنما هو أول معنى يوجد فى المادة الأولى ، والمادة الأولى إنما هى موجودة كما قلنا بأنها بالقوة ، وإنمـا هى بالقوة أحد أنواع الجوهر ؛ وكونها بالقوة أحد أنواع العرض إنمـا هو بأن يتقدم فيها فى الوجود أحد أنواع الجوهر . فالمادة الأولى هى بذاتها وجودها أولى أحد أنواع من حيث هى نار هى بالقوة أحد أنواع العرض من حيث هى جوهر ما ؛ وكذلك هى بالفعل أحد الجواهر بذاتها ، وهى أحد أنواع الأعراض من حيث هى جوهر ما ؛ وكذلك هى بالفعل أحد الجواهر بذاتها ؛ وهى أحد أنواع الأعراض بأنها جوهرٌ ما .

وقد يتشكك على هذا القول فيقال إنها لا تكون بالقوة جوهراً ما إلا وهى جوهر آخر ، لكن ذلك بالعرض لا بالذات ، لأن ما بالقوة ليس بمفارق للموجود بالفعل . فإنه لو كان ما بالقوة موجوداً بالفعل شيئاً — وهذا بيِّنٌ بنفسه عند من زاول الصناعة الطبيعية أيسر مزاولة فليكن على ما بالقوة ه ، وليكن بالقوة هو حـ أولا ، ويلزم حـ ك م ل ، فإذا ه بالقوة بالقوة حـ ك م ل على

ترتيب . فإذا صار بالفعل حـ صار ك م ل [٣٤٤ ب] وسواء كانت الأعراض واحداً أو كثيراً فـ حـ إذن ليس يوجد فى هـ أبداً بها ، بل أحد أسبابها ك فى هـ حـ ، وليس كذلك حـ فإن حـ يوجد فى هـ من غير أن يتقدم فترة وجود آخر بالذات . فأما ان هـ إذا كان بالقوة حـ كان عند ذلك فى هـ نوع آخر مجانس لـ حـ فذلك بالعرض لا بالذات ، وليس ذلك النوع سبباً لوجود حـ فى هـ . فأما أن هـ تحتاج فى كونها حـ إلى سبب آخر وهو المحرك فذلك إنما هو لشخصٍ شخصٍ من أشخاص الجواهر لما كانت صورة الأشخاص متقابلة فى هيولى واحدة بالعدد ولم يمكن اجتماع المتقابلين معاً فى وقت واحد ، وهذا خارج عما قصدناه . فلتكن على الهيولى الأولى هـ ، ولتكن حـ أينــاً ما كأحد أنواع الفرق فى ك ليس يوجد فى هـ دون سبب يتقدم وجوده فى هـ ، وإلا فتكون الأعراض مفارقة للجوهر . فليكن على ذلك المعنى المتقدم حـ فـ ن إن كان به قوام حـ فـ حـ فى ن على المجرى الطبيعى . وإن كان ليس قوامه به فـ ك فى حـ خارج عن الطبع ، ووجوده فيه خارج عن الطبع قسراً أو غير ذلك ؛ ولأنه أينٌ فهو قسرٌ ضرورةً ، إذ أنواع الأين متقابلة وجنسها غير مفارق للجوهر ، بل يــلزمه التكافؤ بضرورة . وذلك بين لمن زاول هذه الصنــاعة أيسر مزاولة . فوجوده فيه إنما هو لعائق ، إذ ليس ك ومقابله فى المتقابلة[1] التى هى للموضوع بالسواء كالجلوس والقيــام لزيد . فإذا تتقدم ك فى هـ وجود آخر ، وهو إما وجود آخر ، وإما نسبة العالم إليه ، وهو سبب على أنه جزء مما به قوام ك . فليكن على العائق ق . فـ ك يوجد فى هـ مع وجود حـ أو ق ضرورة . وليس يمكن أن يوجد ك فى هـ دون حـ أو ق ولا بالقول مثلا ، فكيف بالوجود . فإذا زال حـ — وزوال حـ إنمــا يكون ضرورة بتغير وقد يكون بالطبع وأسباب أخر ، فسيزول ك . فزوال حـ إن زال حـ دفعة تال هو دفعة . وإن زال شيئاً

(١) ط : المدالمه .

شيئاً زال هو شيئاً شيئاً . فزوال ك مساو لزوال ح لأن ك فرضناه عرضاً طبيعياً ذاتياً . وقد يتفق أن زوال ك و ح باق . فإذا كان ك عرضاً فى ح بالعرض إن كان ك فى ه يتقدم وجود ق . فبزوال ق يزول ك . فإن كان ق يزول شيئاً فشيئاً فساوق زواله زوال ك ؛ وإن زال دفعة وذلك ممكن ففى ذلك الآن يلزم زوال ك . لكن إن كان شىء له ضد . فإن كان لا وسط بينهما زال ك دفعة ، وليكن على ضده ل أو لأن ك فرضناه ف ح خارج عن الطبع . فإذن ل لـ ح بالطبع صار ك فى ح إذ لا وسط بين ك ، ل . ولا يخلو ح منهما كالواحد والكثير ، والزوج والفرد . وإن كان بينهما أوساط فبين أن ح هو بالقوة ل . فقد يمكن أن يتحرك ، لأن كل متحرك هو بالقوة ذلك الذى إليه يتحرك ، ففيه المتحرك . ولأن ما هو بالقوة ه هو بالفعل ك ، و ك منقسم ، فإذاً يجب ضرورةً أن يكون فى ه : ل . ويحتاج وجود شىء آخر يوجب ذلك كما قلنا وهو إما ه وإما ح . لكنه ليس ذلك ق فهو ح . ف ح هو الذى يوجب له أن يكون فيه ك ، وبه يستأهل ه ك . فلذلك كان يلزم ضرورة أن يكون فى ه فى الآن . لكن لما كان ل ، ك متضادين ومنقسمين لم يكن ذلك فى الآن ، فكان فى زمان . فلذلك وجد جزء بعد جزء على اتصال ، دون أن يكون فى أحد الأجزاء أبين . وهذا هو الحركة . فإذن ح هو المحرك له على هذا الوجه .

وقد يسأل سائل فى ك ، ل إذا كانا لا أوسط بينهما متى صار ل فى ح ؟ فإن كان فى الآن الذى زال فيه ح ، و ح كان أبداً ك ، فقد صار ح هو ك ، ل معاً . وهما متضادان . وذلك لا يمكن . وإن كان فى آن آخر وكل آنين فبينهما زمان ، فقد كان ح خلواً من ك ، ل ؛ وصار بينهما وسط . وذاك كله خلاف ما فرض . فالقول فى هذا جزء من القول فى الحركة . وقد بين أن الحركة لا أجزاء لها فى السادسة من « السماع » . وتبين أن الآن

إنما هو للمستقبل ، لا للماضى . فلنعرج عن القول فيه للناظر فى التغير ، إذ ليس ذلك من سبيلها فى هذا القول .

فقد تبين إذن كيف تحرك الحجارات ، وبالجملة فكل ما يتحرك إحدى الحركتين المتقابلتين بالذات . فأما الأجرام المستديمة فليس نجد فيها لحركة من حركاتها متقابلات . وقد تبين ذلك فى الأولى من كتابه « فى السماء والعالم » . وكل ما يتحرك حركة واحدة من الحركات المتقابلة فهو جسم طبيعى ، وصورته وهى جزء يقال لها طبيعة على الخصوص . وكل تغير فله مقابل واحد وأكثر من واحد : فقد يقابله السكون فقط ، مثال ذلك : التعلم ، فإن مقابله : البقاء على الجهل . وقد يقابله مع السكون تغير آخر كالصعود ، فإنه يقابل : اللبث أسفل ، ويقابله الهبوط ، وهو الحركة إلى أسفل . وقد يقابل الحركة الحركة على غير هذين الوجهين . وقد لخص ذلك فى الخامسة من « السماع » . فالحركة فى المكان ولها أطراف متقابلة : فهى الصعود والهبوط ، فهى لكل جسم هيولانى ، وهى أولا للاسطقسات ، ولكل واحدٍ منها واحد من أصناف هذه الحركة بالذات : كالهبوط للأرض ، والصعود للنار ؛ وهى لسائر الأجسام من أجلها ، لأن كل جسم هيولانى [١٣٤٥] فهو إما واحد منها أو مؤلف من أكثر من واحد — مثال ذلك : أجسام النبات والحيوانات ، فإنها مركبة من الأرض والماء ، والزيت والشمع فهو مركب منهما ومن الهواء والدخان ، والبخار : من الماء والأرض ، وقد لخص أصناف هذه أرسطو فى مواضع كثيرة .

وأما الأجسام الأخر التى لم تُعْطَ مبدءاً أكمل من هذا من مبادىء وجود الاسطقسات بل مبادىء وجودها مجانسة لتلك ، فليس لها من حركة المكان بالذات إلا هذان الصنفان فقط كالذهب والشمع وأجسام النبات وأجسام الحيوان إذا فارقتها الأنفس كخشب العرعر وخشب الأبنوس . ولذلك توجد لها سائر الحركات بالعرض : إما خارجاً عن الطبع ، أو قسراً .

وأجناس الحركة المكانية ثلاثة : منها الجنس الذى طرفاه الصعود والهبوط . والثانى : الجنس الذى طرفاه التقدم والتأخر . والثالث : الجنس الذى طرفاه التيامن والتياسر . فهذه الأجناس الثلاثة هى أجناس حركة المكان البسيطة . فأما كل حركة غير هذه فهى مركبة مثل حركة الوارد . فأما حركات الاستدارة للحيوان فإنما هى حركة على شكل كثير الزوايا وتكون مركبة على جهة التشافع والامتزاج . وتلخيص ذلك خارج عما نحن بسبيله .

والحركة فى المكان تسمى فى لغة العرب بعض أصنافها « النقلة » ، وهى الحركة الارادية . وربما قيلت فى الحين بعد الحين فى كل صنف من أصنافها نقلة . فلنطلق نحن عليها الانتقال . فالانتقال ما كان منه فى الفوق والأسفل فقد قلنا فيه . وأما الجنسان الآخران فإنهما يوجدان للحيوان خاصة . وليس يوجد صنفٌ صنفٌ منها لصنف صنفٍ من الحيوان ، كما وجدت أصناف الانتقال للاسطقسات ، بل يوجد المتقابلان بالسواء للحيوان الواحد بعينه بالعدد ، لكن لا كل حين من الزمان . والسبب فى اختلاف ذلك هو أن الفوق والأسفل محدودان بالطبع : فإن الأسفل هو المركز ، والفوق مقعر فلك القمر أو جسم آخر دونه . ولا يمكن فى المركز أن يكون فوق ، ولا فى مقعر فلك القمر أن يكون أسفل ، فإن ماهيتهما تقتضيان ذلك . فأما اليمين فليس بمحدود فى ذاته ، فإن وجود المكان يميناً إنما بالإضافة إلى المتحرك ، وبذلك يكون المكان الواحد منهما يميناً لواحد ويساراً لآخر فى آن واحد ، ويكون يميناً ويساراً لحيوان واحد بالعدد ، لكن فى زمانين لا فى زمان واحد . وكل حيوان فهو ذو جسم متميز الجهات . وكل ذى جسم متميز الجهات فالمكان الأول الذى هو فيه إضافات متميزة إلى الأمكنة الأخر . ولكل نوع من أنواع الحيوان أنواعٌ من المكان طبيعية له ، مثال ذلك : الطائر ، له أمكنة فى الهواء طبيعية ، وأمكنة فى الأرض . وقد توجد له أمكنة فى الماء . وقد لخص ذلك

أرسطو فى كتاب « الحيوان » . فأما : هل أمكنته فى الهواء مشابهة لأمكنته فى المادة ، أو لا ، فتلخيص ذلك لائق بالقول فى حركات الحيوان المكانية ، فقد وقفنا هذا القول على وجود المتحرك فى الحيوان بالطبع ...(١) ... الا وهو حيوان لأن كل حيوان فهو ذو جسم متميز الجهات فأمكنته متميزة الإضافات بعضها إلى بعض ، هذا للحيوان من جهة ما هو حيوان . وأكمل الحيوان تميز جهات فهو الإنسان ، لأن جهات كل جسم مستقيم : ست . وأما النبات فقد تميز فيه الفوق والأسفل ، لكن بخلاف وضع العالم . وسنقول فيه بعد هذا . وأما الحيوان غير الناطق فقد تميز فى الساعى منه : الأمام والخلف . وإن ذوات الأصداف ليست ساعية ، وتميز فى أكثر هذه : اليمين واليسار . فأما الفوق والأسفل فلم يتميز فيه أن الجهات مستديرة ولا قوائم لها . وأيضاً فإن وضع واضع أسفل الحيوان قوائمه كأن فوقه هو ظهره ، والظهر فى الإنسان هو وراؤه . والإنسان بين جميع الموجودات الهيولانية تميزت فيه الجهات كلها : فإن أمامه متميز من ورائه ، وفوقه من أسفله ، ويمينه من يساره . وهذه الأجناس — أعنى أجناس الحركة المكانية — قد تكون بإرادة الحيوان ، وقد تكون له بالضرورة . أما بالضرورة كهبوط المتردى من علو ، فإن هذا أحد أصناف ما يقال بالضرورة . وقد تلخص ذلك فى علم الأخلاق ، ونقل المريض من مضجعه . وقد يكون بإرادة : كحركة الإنسان إلى السوق . فأما حركة الضرورة من غير الجنس الأول فقد يكون المحرك للحيوان خارجاً عنه . وقد يكون فى الجنس الأول ، مثل نقل المريض من البيت إلى الشرفة(٢) . وأمكنة الحيوان فإنها مع تحديدها بالإضافة إليه فلا بد لكل مكان من تحديده ، فإن الركن مكان حددته الصناعة ، والمقبض مكان تحدد بالقبض .

وتلخيص أصناف أمكنة الحيوان لائقة بالقول فى الحركات المكانية .

---

(١) بياض فى ط . (٢) ط : المشرق .

[٣٤٥ب] <رسالة في القوة النزوعية>

ومن* قوله رحمه الله فى القوة النزوعية :

العادة إنما توجد للانسان بالنفس النزوعية . فإن الذى يقبل العادة ، وهو الجزء النزوعى والجزء العادى . والعادة أصناف يقال عليها العادة بتشكيك(١) . فيجب أن نحصى(٢) الأشياء التى تقال(٣) عليها العادة ونلخص بعضها من بعض حتى تتميز :

الخشوع : ومقابله لا اسم له فى العربية ، فليسَمَّ الاستهانة . والخشوع إنما(٤) يكون بالعادة ، وقد يكون بالطبيعة . فالذى يكون بالطبيعة هو الخشوع

---

* وفى الهامش العنوان : « وأيضاً كلام لأبى بكر محمد بن يحيى فى القوة النزوعية » .

(١) « التشكيك عند المنطقيين : كون اللفظ موضوعاً لأمر عام مشترك بين الأفراد ، لا على السواء بل على التفاوت . وذلك اللفظ يسمى مشككاً بكسر الكاف المشددة . ويقابله : التواطؤ ، وهو كون اللفظ موضوعاً لأمر عام بين الأفراد على السواء . وذلك اللفظ يسمى متوطئاً . ثم التشكيك قد يكون بالتقدم والتأخر ، بأن يكون حصول معناه فى بعض الأفراد متقدماً بالذات على حصوله فى البعض الآخر ، كالوجود : فإن حصوله فى الواجب قبل حصوله فى الممكن قبلية ذاتية لأنه مبدأ لما عداه . ولا عبرة بالتقدم الزمانى فى باب التشكيك . . . وقد يكون بالأولوية وعدمها ، كالوجود أيضاً فإنه فى الواجب أتم وأثبت وأقوى منه فى الممكن . والفرق بين هذا والأول أن المتأخر قد يكون أثبت وأقوى من المتقدم ، فإن الوجود فى الأجسام الكائنة الحادثة فى عالمنا هذا أثبت وأقوى منه فى الحركة الفلكية المتقدمة عليها تقدماً بالذات . — وقد يكون — أى التشكيك — بالشدة والضعف ، كالبياض فإنه فى الثلج أشد منه فى العاج ، إذ تفريق البصر فى الثلج أكثر وأكمل منه فى العاج » . (« كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى ، جـ ١ ص ٧٨٠ — ٧٨١ ، طبع كلكته سنة ١٨٦٢) .

(٢) ط : نحص .

(٣) ط : نعدل (!) .

(٤) ط : بما .

للكمـال من جهة أنه كال ، والاستهانة بالنقص من جهة أنه نقص ممكن لمـا كان الكمال والنقص ليسا بذاتهما موجودين بل إنهما حالان لحقتا الأمور فكأنهما جنسان ، فلذلك إنمـا يوجدان فى موضوعاتهما . فكل كال فيجب أن نخشع له . وهذه قضية أولى معترف بها عند الجميع . وأما أن هذا أو ذاك كال — فذلك مما يحتاج إلى تبيين . فقد يكون أمرٌ ما عند قوم كالا ، وعند آخرين نقصاً . وذلك بين لمن تصفح الشرائع المختلفة والآراء والسُّنن . وقد يكون شىء كالا عند شىء ، ونقصاً عند شىء آخر . وهذا الكمال بالإضافة . وهذه قد تكون وقتاً ما كالا ، ووقتاً غير كال . لكن هذا ليس يقال له كال ، بل يطلق عليه اسم الخير . فإن الخيرات إما أن تكون مرادفـاً للكمال ، أو أعم منه . فالأشياء التى هى كال قد تكون بالوضع والشرع فتكون فى بعضها الآراء المكتوبة والآراء غير المكتوبة تشتمل على الكمال بالوضع ، فتكون عند قوم ما وعلى الكمال المشهور فتكون عند الجميع . وما بالوضع فمختلف : فمـا كان كالا عند قوم لا يكون كالا عند آخرين . فلذلك مَنْ نشأ فى قوم مـا تخشع نفوسهم لأمور يستهين بها آخرون . فلذلك إذا كان ما هو كال فى الوجود ، وكان إنسان ما فى قوم قد اعتاد أن لا تخشع نفسه لذلك الذى هو كال ، ثم تبين له أن ذلك الأمر كال ، لم تخشع له نفسه ، ولا أكرمه ، ولا رأى أنه حصل له شىء ، فيكون ذلك العلم عند ذلك الإنسان مطرحاً لا يحفل به إلا من لزومه عن القول ، كما أن المرضى يحسون المُرّ حلواً ، ويرون الواحد اثنين ، كذلك مرضى النفوس يرون الكمال نقصاً ويرون النقص كالا . وكما أنه لا سبيل لهؤلاء المرضى إلى أن يحسّوا الحلو حلواً حتى يصحوا ، كذلك مرضى النفوس لا يمكنهم أن يروا الخير خيراً حتى تصح أنفسهم . وكما أن بين المرضى من يحسّ الحلو مراً ويقضى عليه أنه مر ، ومنهم من يحس أنه مر ويعلم أنه حلو أو يقضى أن الآفة عنده ، فواجب عليه مع أنه لا يستهينه أن يطرحه ،

والثانى لا يستهينه فقط . وكلاهما لا يعقلان عن الحلو ما شأنه أن يعقل عنه . كذلك مرضى النفوس يلحقهم هذا بعينـه فلا يعلمون عن الخير ولا يحركهم الخير ، ولا تكون الصورة الروحانية للأشياء[١] التى هى خير تحرك هؤلاء أصلاً ، وإن حركتهم فإلى الهرب عن أهل السير المشهورة والموجود فى سنى الستمائة[٢] للهجرة من تاريخ العرب ، وكلها تودع فى النفوس أمراضاً ، فلذلك لا يعرفون الكمال المتبرى عن القوة ، وإنما يعرفون السكون . وهو إذا كان بالقوة محضاً . وهذا يقترن به التشوق بهم ، لذلك يشعرون به لأن التشوق ألم ، ويعرفون من الكمال ما يقترن به الحركة ، لأن اللذة عند ذلك تكون . فإذا حصل الكمال وتم لم يشعروا به . وكذلك لا يشعر الصحيح بصحته ، ولا يرى أنه أعطى شيئـاً له قدر ، ويشعر المرضى بها ، ويرونها أعظم المدركات إذ كانوا بالقوة أصحاء . والشعور بالسكون الكمالى — إن جاز أن يقال له سكون ، لأنه سكون لا تقترن به قوة حركة ، فلذلك السكون أمر فاضلٌ جداً ، فيجب أن يرتاض فى الشعور به حتى يحصل ملكة . وهذا النوع إذا حصل ملكة كان له عناء فى وجود الإنسان عظيم القدر جداً . وهذا ممـا يجب أن يتقدم فيوضع قبل القول فى السعادة القصوى .

كما أنا قلنا فى الانفعال ، فكذلك يجب أن نفحص فنحصى على كم وجه يقال إن الفاعل يفعل ، وكيف نحس الجزء النزوعى بالفعل ، فإن النفس النزوعية تنفعل ، وإنما نفعل لا بالنفس النزوعية بل بجزء آخر هو بالفعل ، لأن النزوعى بالقوة فقط . فقد يظن أن القول فيها لم ينقض فى « الكون والفساد » ، كما عرض ذلك فى اليمين فإن أرسطو إنما تكلم عنه فى « الآثار العلوية » فيما يلحق

---

(١) ط : الأشياء .

(٢) ط : شنى السدب ڡانه للهجره من تاريخ .

البحر الكائن عن الاسطقسات ، ولذلك قال فى « يه[1] » من الحيوان أن القول فى اليمين لم ينقض وكل منفعل ، بل كل متحرك فهو بالفعل [٣٤٦ ا] شىء آخر . فإنه لو لم يكن بالفعل شيئاً أصلا ، لكانت القوة شيئاً موجوداً بالفعل ، ولكان للهيولى الأولى ضرورة ، وكان الإمكان قائماً بنفسه وشيئاً قائماً بذاته . وهذا ظاهر لمن زاول الصناعة الطبيعية أيسر مزاولة . والمتحرك هو جوهر ما ، بل هو جسم ما ، لأن كل متحرك منقسم ؛ لكن ذلك هو للحركة بجهة متوسطة بين ما بالذات وما بالعرض . وأرسطو يعد ذلك فيما بالعرض . فإنه إن كان بالذات بوجه ما ، فليس أولاً . والمحرك بالقوة شىء ما بالذات وأولا . وهو يتحرك من جهة ما هو بالقوة حتى لو وجد ما بالقوة شيئاً مفارقاً للأجسام يتحرك بنفسه وصار ذلك الشىء إما جوهراً أو كما أو كيفاً أو أيناً أو غير ذلك من المقولات . لكن ما بالقوة يلزمه اضطراراً — كما قلناه — أن يكون شيئاً ما بالفعل . وقد قلنا إنه شىء آخر بالقوة . فهو إذن بالفعل أحد المقولات ، وهو بالقوة أحد المقولات . فليكن ما بالقوة ق ، وليكن بالفعل ح ، وبالقول ك . وبين لمن مارس العلم الطباعى أيسر ممارسة أن ما بالقوة من جهة ما هو بالقوة ليس تحت مقولة ، فإن كل ما تحت مقولة

---

(١) أى المقالة الخامسة عشرة من « الحيوان » . وقد تكلم أرسطو على اليمين فى كتاب «أجزاء الحيوان» ص ٦٤٨ ا س ١٠ ، ص ٦٦٥ ا س ٢٠ (فى أنه أسمى من اليسار) ؛ وص ٦٦٧ ا س ١ ، ص ٦٧٠ ب س ١٥ (فى أنه أكثر حرارته من اليسار) ؛ وص ٢٧١ ب س ٣٠ (فى أنه أقوى وأكثر تقدماً من اليسار) ؛ وص ٦٧٢ ا س ٢٥ (فى أنه أشد صلابة وأليق للحركة من اليسار) ؛ وص ٦٧١ ب س ٣٠ (فى أن الحركة تبدأ من اليمين) ؛ وص ٦٨٤ ا س ٢٥ (فى أنه أفضل استعمالا فى العادة) .

كما تكلم عن اليمين أيضاً فى « مشى الحيوان » : فى ص ٧٠٥ ب س ١٥ (أنه يتعين بحسب الوظيفة) ؛ و ص ٧٠٧ ب س ٥ (يتوقف على التمييز إلى اثنين) ؛ وص ٧٠٥ ب س ١٥ (على أنه مصدر الحركة) ؛ وص ٧٠٥ ب س ٣٠ ، وص ٧٠٦ ا س ١ (أنه يثبت بالتجربة) ؛ وص ٧٠٦ ا س ١٠ (أنه واحد فى كل الحيوان) ؛ وكذلك فى صفحات : ٧٠٧ ب س ١٥ ، ٧١٤ ب س ١٥ ، ٧١٤ ب س ٥

— أى مقولة كانت — فهو موجود بالفعل . والمقولات إذاً تقابل بالقوة كما يقابلها ما بالفعل ف ح ، ك اذا كانا تحت مقولة واحدة ف ح ، ك نوعان متقابلان . كانا جوهرين فلا اسم لهما ، لكن قد يسميهما أرسطو وأبو نصر < الفارابى > عند الحاجة إلى ذلك متضادين . إلا أن المتضادين يحتاجان إلى موضوع واحد بالفعل . وليس لهذين موضوع بالفعل . وإن كانا تحت أحد المقولات التسع مما بالقوة موجود ضرورة جو اً فله وجود ثالث هو به موضوع ل ح ، ك . ف ح ، ل إن كانا تحت الكم فهما أكبر شبهاً للمتضادين من الصنف الأول . ولذلك يقال فى النمّو إنه حركة ، وإنه تغيير أكثر مما يقال فى السكون . وقد شابه أنواع الكم المتضادان فى نحوين : أحدهما أنها أنواع تقترن بها أعدام مجانساتها ، كما وجد ذلك فى صورة الجواهر . والثانى أن لها موضوعات موجوة بالفعل قابلة لأنواع الكم . وليس لأنواع الجوهر موضوعات ، بل هى الموضوعات ؛ بل إن قيل للمحرك موضوعات فبطريق التشكك . وإنما فارقت المتضادات فى أن ليس لأنواع الكم طرفان محدودان ينطق عنهما ، فإن أعظم الكلاب لا يمكن أن يكون له عِظَم الفيل ، وأصغرها لا يمكن أن يكون فى عظم نملة . فأنواع عظم الجواهر كثيرة مختلفة ، وأطرافها غير محدودة إلا أن يكون بالإضافة إليها فيعرض لها تضاد ، كما يعرض لأطراف المزاج فى الكيفية . وقد لخص ذلك فى «المزاج[1]» فأما ح ، ك إن كانا كيفين وكانا تحت واحد من أجناس الكيفية الأربعة فلهما موضوع موجود بالفعل . ويقترن بكل واحد من أنواع ذلك الجنس عدمٌ مجانس[2] له وفيهما نوعان هما طرفان لا بالاضافة بل بالإطلاق . ولا يمكن أن يوجد نوع أبعد

---

(١) أى فى رسالة فى « المزاج » وص رقم ٤ فى المجموعة المخطوطة ببرلين برقم ٥٠٦٠ فى فهرست الفرت .

(٢) ط : مجانساته .

من ذلك الطرف فى مقابله ، وليس كذلك فيما هو كم . فليكن أصغر عِظَم وهو الكلب مثلا عليه ا ، وأعظم عظم عليه ر فما بما يوجد فى ا أو ب ، حـ ، ر . فكل نوع من الكم يوجد فى الكلب فهو أقرب من ر من عظم ا من د ؛ وليس يوجد عظم أبعد من ا من د . لو وجد ذلك لكان أصغر من ر ، وليكن هـ . فعظم ر أقرب إلى ا من هـ . فـ د ليس طرفاً فى م إلا إذا كان م هو كلياً ، فهو نوع من الجوهر . فعظما ا ، ك ليسا طرفين بالإضافة على التحقيق وبالذات إلى الموضوع الأول الذى هو بالقوة وهو الهيولى ، بل يجرى مجراها ، لأن جزءاً من أجزائه هو هيولى . و ا ، حـ ليسا طرفين مما هما أو نيل من جهة إضافـة لحقتهما . فليسا إذن طرفين فى الوجود . فإن كل شىء يوجد له أمر ما من جهة ما هو ذلك الشىء فهو له فى الوجود . وما كان يوجد له وهو بحـال ما ، وكان ذلك الشىء يوجد لشىء آخر ليس له تلك الحال ، فليس يقال إنه كذلك فى الوجود . بل إن كان له فى الوجود فعلى طريق التشبيه . وأيضاً فإن حـ ، ك إن كانا ليسا تحت مقولة واحدة فيمكن فيه ضرورة أن يكون حـ ، ك ، وإلا كان عندياً ولم يكن شيئاً موجوداً . فإن كان لا يمكن ذلك فليس ك ، حـ أحدهما موضوع للآخر ، إلا كما يقال إن النيّر بالقوة بارد ، لأن النيّر يلزم الحار من النـار . وتلخيص هذه الأصناف وإحصاؤها سهل لمن أراد ذلك ، ونحن نكتفى بهذا التلخيص على طريق الرسم .

فالمتقابلات كلها ، إذا كانت فى موضوعاتها ، فيلزمها ضرورة فيهـا أعدام متقابلاتها . والأعدام أصناف : فمنها عدم الجوهر ، وعدم الكم ، وعدم الكيف . ولست أقول إن الجوهر يعدم أصلا ، ولا الكم . فإن كان شىء ما ليس بكم كالعقل ، فإن هذا سلب وليس بعدم . وقد [٣٤٦ ب] لخص أبو نصر النحو الذى به يقال له عدم . والعدم ينسب إلى المقولة على نحوين : منها سلبها ، كقولنا : السماء لا ثقيلة ولا خفيفة ؛ ومنهـا رفع سلب نوعٍ نوعٍ منها عن

موضوع يمكن أن يوجد فيه ذلك النوع . وهذا أحق باسم العدم من الأول . ثم يقال بعد ذلك على أنحاء ، أحقها كلها باسم العدم : العدمُ الذى لخص فى المتقابلات فى كتاب « قاطاغورياس » . وهذا النحو الثانى الذى ذكرناه هو الذي يذكره أبو نصر < الفارابى > ويقول : أرسطو يعد عدم كل مقولة فيها : فعدم الجوهر فى مقولة الجوهر ، وعدم الكم فى مقولة الكم .

وبيِّنٌ بأيسر تأمل لمن زاول الصناعة الطبيعية أن المادة الأولى لا يمكن فيها أن تعرى من بعض المقولات حتى لا يكون فيها نوع واحد منها . فأول ذلك : الجوهر . وذلك مما تبين فى الأولى من « السماع » < الطبيعى > ، إذ لو عريت عنه لكانت المادة الأولى ذات صورة . ويليه الكم ، فإنه ولا جوهر واحداً هو ـ لانى ليس بجسم . فما أبعد ممن ألف العظم مما لا ينقسم ! فإنه إن كان كذلك وُجد جوهر لا كم له . وهذا محال . وقد تبين فى أول السادسة من « السماع » ويُبِن أكثر بياناً عند التأمل . ويجب أن تعلم أن العظم يقال على المستدير والمستقيم بتشكيك ، وأن العظم المستدير ما كان له مركز . وقد لخصنا فى تفسير معانى السابعة من « السماع » < الطبيعى > . ثم بعد ذلك فى الهيولى جنس الكيف الانفعالى : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة . ولذلك كل جوهر هيولانى فهو جسم . والجسم يقال بتشكيك على المتحرك باستدارة ، وعلى المتحرك باستقامة ؛ وهيولاها ليست واحدة بالنوع كما صورها ، بل تتناسب تناسب الصور والمادة التى تقبل الحركة على الاستقامة هى الهيولى على التقديم . فأما التى تقبل الحركة المستديرة فهى أبداً موضوع وليست بهيولى ولا مادة . بل إنما يقال لها هيولى ومادة بالمناسبة كما يقال لهذه موضوع بالشبه والمناسبة . فالهيولى الأول لا تخلو من جنس الكيفية الانفعالية ، ولا يمكن تعرّيها منها . ولذلك إذا أراد أرسطو أن يدل على جميعها يقول : كل جسم ملموس . وكذلك كيفية الكم الذى هو الشكل

والصورة . وكذلك الأين . وكذلك الوضع . وكذلك المتى . وكذلك الإضافة . فهذه المقولات التسع بين من أمرها أن الهيولى الأولى لا تعرى منها ، لكن بعضها أبيض من بعض .

فأما الفعل والانفعال فقد تشكك فيه . لكن إذا تُعُقِّب أمره ظهر أنه كذلك . فأما مقولة «له[1]» فإنها توجد لذى النفس ؛ وقد يوجد فى الجمادات ما يظن به أنه « له » ، غير أنه إذا تعقب أمره ظهر أنه ليس تحت هذه المقولة .

وكذلك اللون : فقد يظن ببعض الأجسام أنها غير ذات لون ، كالهواء والزجاج ، وأبين من ذلك : الطعوم والروائح[2] فإن موضوعها قد لا يخلو من جميع أنواعها . لكن وإن كان ذلك فليست هذه موجودة للجوهر بذاته أولا ، بل إنما توجد ثانياً وبعد أن تتقدمها فى الموضوع موجودات شتى تحت[3] مقولة أخرى . وكأن هذه ، وإن لم تكن أنواعاً لتلك ، فهى كالأنواع ، مثال ذلك : الطعوم ، فإنها وإن لم تكن أنواعاً للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فليست خارجة عنها ، لأنها حرارة لحقها أمر آخر ، صارت به[4] تلك الحرارة نوعاً لجنس آخر كما عرض فى القول فى الأكر المتحركة : فإن النظر فيها ليس هندسياً متأتياً للنظر الهندسى ، بل هو واقع تحت النظر الهندسى . وقد لخصنا ذلك فى أقاويلنا « فى النفس » .

وقد تلخص ما قلناه على نحو آخر ، وهو أن كل جسم فهو مؤلف من صورة وموضوع . وموضوع الأجسام السرمدية يخص بالموضوع . وموضوع الكائن الفاسد يقال له هيولى ومادة وما شاكل هذه الأشياء . وكل جسم

---

(١) أى مقولة الملك .
(٢) ط : والموبعاب .
(٣) ط : محسدوله (!)
(٤) ط : بها .

فاسد فهو اسطقس أو مؤلف من اسطقسين فزائداً . وكل مركب من أشياء ففيه ما لتلك الأشياء . فالأشياء اللازمة للاسطقسات هى لازمة لكل جسم هيولانى . والأشياء اللازمة للاسطقسات من المقولات هى أنها جواهر ، وأنها ذوات أعظام ، وأنها ذوات كيفيات انفعالية ، وأنها ذوات أوضاع وأيون[١] ، وأن لهامتى ، وأنها مضافات ، وأنها تفعل وتنفعل . وكل جسم ففيه هذه الأجناس من مقولات ضرورة . وأما سائر ما يوجد للأجسام الهيولانية فهى راجعة إلى هذه — مثال ذلك : الخشونة والقحل[٢] ، والصلابة واللين ، والملاسة . فأما سائر ما يوجد للأجسام الهيولانية فهى راجعة إلى هذه . مثال ذلك < . . . >[٣] فإنها ضروب من الرطوبة واليبوسة . فإن اليبوسة إذا لحقها عارض صارت خشونة وقحلا . ومن الرطوبة تكون الملاسة واللين . وقد ذكر أرسطو فى الثانية من « الكون والفساد » وكذلك الطعم والرائحة ، فإن هذين الجنسين فيهما الرطوبة واليبوسة كالهيولى . وأما الألوان فالقول فيها قول آخر . وإذا تعقب الأمر فيها ظهر أن هذا الجنس يوجد للاسطقسات . واستقصاء ذلك فى غير هذا الموضع .

وقد بين فى السابعة من « السماع » أن الاستحالة إنما تكون فى المحسوسات . فليقف من شاء على ذلك من كلام أرسطو هنالك ، ومما قاله المفسرون فيه . فالفعل والانفعال إنما هما فى الكيفيات الأولى ، وهى التى بها يكون الكون والفساد ، وهى الأربعة ، وقد عُددت فى مواضع كثيرة . وقد بينا نحن فى مواضع غير هذه أن القوى تقال باشتراك على : المنفعلة وعلى الفاعلة ، ورسمنا كل واحد من هذين الجنسين . فالقوى الفاعلة هى ضرورة

(١) جمع أين ، أى مكان .
(٢) قحل الشىء : يبس . ويقال قحل الشيخ : يبس جلده .
(٣) نقص وردت فى المخطوط علامة تدل عليه .

[١٣٤٧] موجودة ، وإنها تقترن بموجود بالقوة المنفعلة تصير ضرورة موجوداً وتصير شيئاً ما مشاراً إليه ، بعد أن كانت غير موجودة ، لكنها تقترن بموجود والحركة فى المكان تناسب الانفعال ، ولا فرق بينهما فيما نريد أن نقوله .

وكل متحرك فله محرك ، وكل منفعل فله فاعل . والحركة فى المكان إنما تنسب إلى الحيوان خاصة ، وإلى الأجسام المستديرة . فلنترك القول فيما يخص المستديرة فإنه ليس تنسب لنا هذه . والحيوان إنما يقال إنه متحرك بذاته ومن ذاته فى المكان خاصة ، وذلك أن فيه المحرك وهى النفس والمتحرك وهو البدن . وقد تلخص ذلك فى الثامنة من « السماع » . فالمنفعل هو البدن ، والفاعل القريب هو النفس ، وهو النزوع . ولا يكون نزوع إلا بوهم ، وقد يكون الوهم ولا يكون نزوع . والوهم هو المحرك ، والمتحرك هو الجسد . فليت شعرى : النزوع أهو يوجد فى الوهم حتى يكون له كالآلة ، أو هو فى المتحرك حتى لا يكون هيولى لذلك الوهم إلا بذلك النزوع ! فإنه ليس كل هيولى لكل متحرك ، بل لكل محرك بالطبع متحرك بالطبع . وقد ذكر ذلك أرسطو فى الثامنة من « السماع » . فأما أن التوهم ليس موضوعاً للنزوع فذلك كالبين بنفسه . فالنزوع إذاً فى شىء آخر . ولأن النزوع فى محسوس فهو ضرورة حال فى جسم ، إذ لا يحس إلا جسم . فهل هو صورة لذلك الجسم كالزجاج ؟ فإنه إذا كان زجاجاً بالقوة — وذلك عند ما يكون حجراً — فليس يمكن أن يتخذ منه آنية . فأما إذا صار زجاجاً بالفعل أمكن ذلك ، كالرطوبة فى السمع ، فهو حال فى ذلك الجسم . ولذلك الجسم وجود ما آخر . فلنفحص عن ذلك . والمقدمات الخاصة بهذا النظر الذى تتخذ منه الدلائل عليه قليلة . ولكن ليس يجب علينا بذلك ترك الفحص . وفى أمثال هذه يقول أرسطو : إنا وإن علمنا أنا لا نبلغ من العلم بهذا الأمر كنهه ، فلنبلغ منه قدر الكاد . وهذا إنما هو فى التصور ، لا فى التصديق . فنقول إنه قد تبين في غير

موضع أن القلب أو ما يقوم مقـــامه هو مبدأ الحيوان ، وأنه ينبوع للحار الغريزى الموجود فى البدن ، وأن بالحار الغريزى تكون جميع الحركات الموجودة فى البدن ، وأعنى بذلك الاغتــذاء وضروب الـنزوع والتوهم والتفكر : فإن الهضم وإن كان فى المعدة فهى كالكتابة وإن كان القلم هو الذى رسم الأحرف فإن الراسم هو الإنسان .

وبالجملة فالمحرك الأول هو الذى ينسب إليه الفعل ، كما تبين ذلك فى ثامنة « السماع » وقلناه نحن فى « رسالة الوداع » ، فإن المنصور هو الذى قتل عبد الله بن على وإن كان لم يتناول ذلك المنصور بيده ، وكان بعيداً عنه . فإن الآلة قد تكون متصلة بالفاعل ، وقد تكون منفصلة : مثال ذلك الصائد هو الذى أخذ الذئب فى الحبالة ، وإن كان الصائد غائبـاً عن الحبالة عند وقوع الذئب فيها . وذلك أن الآلة إما أن تودع المحرك الأول فيها حالاتها تفعل فعلها فلا تحتاج ضرورة إلى اتصالها بالمحرك ؛ وإما أن لا تقبل تلك الحال إلا وهى متصلة بالمحرك كالقلم .

* * *

وقد استطعنا الظفر بمجموعة خامسة من رسائل ابن باجّة ، نؤجل الحديث عنها ونشرها إلى فرصة مقبلة .

عبد الرحمن بدوى

أضواء على مشكلة تأريخ بنيان المسجد الجامع بقرطبة

[على الرغم من المناقشات الطويلة التي أثارها الباحثون من المستشرقين الإسبان والفرنسيين خلال العشرين سنة الماضية حول مشكلة تأريخ بناء جامع قرطبة ، تفسيراً لبعض الظواهر الفنية فى عمارة المسجد فى عصر كل من الأميرين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط التى تتعارض مع ما أمدتنا به المصادر العربية ، وعلى الرغم من احتدام الجدل فى هذا الموضوع وانقسام الباحثين إلى فريقين : فريق يعتمد فى رأيه على نتائج الحفريات الأثرية فى أرض المسجد ، وفريق يعتمد على النصوص التاريخية التي زودتنا بها المصادر العربية ، فإنهم لم يخرجوا من هذه المناقشات بنتائج موضوعية ، وما زال تأريخ بناء الجامع القرطبي يحتاج إلى مزيد من المباحث التاريخية والأثرية سعياً للتوصل إلى حل نهائى . وفى هذا المقال عرض للمشاكل التى أثارها الجدل المتواصل حول المشكلة الرئيسية ومحاولة متواضعة لحلها [1]]

أورد كل من ابن عذارى[2] والمقرى[3] نصاً تاريخياً هاماً يتضمن تأريخ الشروع فى بناء جامع قرطبة والفترة التى استغرقها ، نقلاه عن الرازى الذى

---

(١) فى سنة ١٩٥٤ سجلت وجهة نظرى فى مشكلة تأريخ بنيان جامع قرطبة فى مقال بالإسبانية نشرته مجلة الأندلس بعنوان : Al-Sayyid Sālem: *Cronología de la Mezquita Mayor de Córdoba, levantada por ʿAbd er-Raḥmān I*, al-Andalus, vol. XIX, 1954

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٣٤١ — ٣٤٢

(٣) المقرى : نفح الطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧

اقتبسه بدوره عن الفقيه محمد بن عيسى ، جاء فيه(١) : « ذكر ابن سعيد فى المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ما نصه : اعتمدت فيما نقلته فى هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره ، عن الرازى(٢) ، أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضى الله تعالى عنه ، بالشام ، من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت ، وابتنوا فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقى الشطر الثانى بأيدى النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما فى أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض . ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه ، فأحضر أعاظم النصارى(٣) ، وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل ، وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم(٤) التى هدمت عليهم بخارج

(١) نلاحظ أن هذا النص فى نفح الطيب أكمل منه فى البيان ، ولذلك آثرت أن أنقل النص الأكمل مع الاشارة إلى وجه الخلاف فى كل من النصين .

(٢) يضيف ابن عذارى فى إسناد النص عبارة عن الفقيه محمد بن عيسى .

(٣) ذكرها ابن عذارى « أعاجم قرطبة » .

(٤) وردت فى البيان « كنائسهم » والأصح كنيستهم ، لأن الرازى يقصد الكنيسة التى هدمت خارج أسوار قرطبة من جهة الغرب ، وكانت تعرف بشنت أجلج «San Ascila» (ارجع إلى مقالى : Cronología de la Mezquita de Córdoba

المدينة ، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة (١) ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير الزيادة فيه ، وإنما الحاجة فى وصفه بكماله . وفى بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوى من قصيدة :

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

قال : وكمل سنة سبعين ومائة (٢) .

ونستخلص من هذا النص الحقيقتين الآتيتين :

١ — أن عبد الرحمن الداخل أقام على موضع الكنيسة والمسجد الأول جامعاً استغرق بناؤه عاماً واحداً وفقاً لما أورده ابن عذارى وعامين وفقاً للمقرى .

٢ — كانت تقوم فى أرض الجامع كنيسة تعرف بشنت بنجنت ، اقتسمها المسلمون مع نصارى قرطبة ، واتخذوا فيها مسجداً كانوا يضيفون إليه سقيفة بعد سقيفة كلما ازداد عدد المصلين .

وتتصل بهاتين الحقيقتين ثلاثة مشاكل أساسية تتعلق بتاريخ بناء الجامع الأموى الأول كانت مثار الجدال بين رجال الآثار والباحثين ، نلخصها فيما يلى :

أولا — المدة التى استغرقها بناء الجامع .
ثانياً — موضع الكنيسة بالنسبة للجامع .
ثالثاً — عدد بلاطات المسجد الذى بناه الأمير عبد الرحمن الداخل .

---

(١) ذكرها ابن عذارى فى البيان « تسع وستين ومائة » .
(٢) ذكرها ابن عذارى « وتم بناؤه واكتملت بلاطاته ، واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠ ، فذلك مدة من عام واحد » .

مشكلة المدة التى استغرقها البناء

ذكر ابن عذارى فى النص الذى نقله عن الرازى عن محمد بن عيسى أن سنة ١٦٩ هـ تسجل تاريخ شروع الأمير عبد الرحمن الداخل فى هدم الكنيسة وبناء المسجد الجامع ، وأن سنة ١٧٠ هـ تسجل الفراغ من أعمال البناء ، ويؤكد ابن عذارى فى نفس النص أن بناء الجامع استغرق عاما واحداً ، ويؤيد ابن عذارى فى ذلك المؤلف مجهول الإسم لكتاب « فتح الأندلس(١) » . أما النص الذى أورده المقرى فيحدد سنة ١٦٨ هـ لإجراء شراء الكنيسة من أصحابها والشروع فى بناء الجامع . وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين فى تحديد مدة البناء ، فإن قصر هذه المدة ، سواء كان ذلك عاماً واحداً أو عامين ، أثار تحفظاً شديداً عند مؤرخى الفن الأندلسى والباحثين من المستشرقين ، وكان الأستاذ جومث مورينو أول من عبر عن شكوكه فى هذه المدة القصيرة لبناء جامع عبد الرحمن الأول بقوله : « ليس من المحتمل أن نقبل قيام جامع قرطبة على يدى عبد الرحمن الداخل فى عام واحد ، ما بين عامي ١٦٩ — ١٧٠ هـ . فالواقع أن بناء مساحة مسقفة تصل إلى ٣٢٠٠ م٢ ، وأنه مقام فى وقت كان يعانى فيه الأندلسيون عصراً من الركود الفنى ، دون الاستعانة بنصارى الشمال ، ولا الإفادة من التقاليد الفنية الوافدة من الخارج ، زد على ذلك تعقد بنيته ، وثراء عناصر بنيانه بالزخارف والتنميقات ، والدقة المتناهية فى مظهر بنائه ، كل ذلك يجعل من المستحيل أن يكون هذا البناء قد تم فى هذا الأمد القصير(٢) » .

---

(١) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، تحقيق دون خواكين جنثالث Joaquín Gonzáles ، الجزائر ١٨٨٩ ، ص ٧٩

(٢) Gómez Moreno: *Excursión a través del arco de herradura*, R. Cultura española, Madrid, 1906, p. 797. ولاحظ تحفظه أيضاً في أبحاثه الآتية :

1 *La civilización árabe y sus monumentos en España*, Revista de Arquitectura, Órgano Oficial de la Sociedad Central de Arquitectos, Madrid, año II, N.º 19, 1919, pp. 310-312.

2 *El arte en España y el Magreb, Colección de Arte del Islam*, Labor, p, 100.

3 *Ars Hipaniae*, t. III: *Arte árabe, español hasta los Almohades*, Madrid, 1951.

والترجمة العربية لكل من الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم .

كذلك أبدى الأستاذ لامبير هذه الاستحالة بقوله : « نخرج من هذا التاريخ بحقيقة أولية غريبة إلى حد ما ، فإن عاما واحداً فى عصر عبد الرحمن الأول ، وهو عصر كان فن البناء ما يزال بدائياً فى الإسلام المغربى ، يكاد لا يكفى لتحقيق المشروع الذى رسمه الأمير الأموى لبناء مسجد يضارع الجامع الذى كان أجداده قد بنوه فى دمشق ، ولبناء مسجد كامل تبلغ مساحته أكثر من ٣٠٠٠ متر مربع[١] » . كذلك عبر الأستاذ توريس بلباس عن شكوكه هو الآخر حول هذه المدة القصيرة[٢] ، ولكنه أدرك أخيراً عقم المناقشة فى الموضوع لقلة ما لدينا من نصوص تاريخية تساعد على إجلاء المشكلة ، فرأى أن عاما واحداً أو حتى أقل من هذه المدة حسبما نفهم من نص كتاب فتح الأندلس[٣] ، « أمر غير منطق ولكن يجب ألا نعتبره مستحيلا ، وينبغي أن نتذكر أن جميع الأعمدة التى استخدمت فى المسجد الجديد اتخذت من أبنية سابقة ، وأن المسجد على الرغم من تأهله للصلاة إلا أنه لم يتم فى السنة التى حددها المؤرخون » ويرجح الأستاذ لامبير بعد ذلك أن البناء لم يتم فى سنة ١٧٠ هـ ، وهو تاريخ قيام الجامع بأداء وظيفته ، إذ كانت تنقصه بعد بعض الأعمال التكميلية[٤] .

وأمام هذه المشكلة الزمنية خرج لنا الأستاذ جومث مورينو بنظرية جديدة ، قوامها أن بناء المسجد استغرق ست سنوات ، واستند فى ذلك الرأي على نص من كتاب فتح الأندلس . وقد فندت هذه النظرية من أساسها فى دراستى عن

---

(١) Lambert: *De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande Mosquée de Cordove, dans Annales de l'Institut des Études Orientales de l'Université d'Alger*, t. I, 1934-1935, pp. 179-180.

(٢) Torres Balbás: *La Mezquita de Córdoba y Madinat al-Zahra*, Madrid, 1952, p. 22.

(٣) يقول صاحب فتح الأندلس . « وفى غرة ربيع الأول منها (أى من سنة ١٧٠ هـ) أمر الإمام عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله بتأسيس المسجد الجامع بقرطبة ، وكان فى موضعة كنيسة » (فتح الأندلس ، ص ٧٠) .

(٤) Torres Balbás: *Arte hispanomusulmán, hasta la caída del Califato de Córdoba, en «Historia de España», dirigida por Don Ramón Menéndez-Pidal*, t. V, Madrid, 1957, pp. 344-345.

« تاريخ جامع قرطبة » ، وذكرت أن النص الذى اعتمد عليه الأستاذ جومث مورينو لا يمت إلى جامع قرطبة بصلة ، وإنما يعنى جامع الجزيرة الخضراء ، فسنة ١٦٤ التي وردت فى هذا النص هى سنة شروع عبد الرحمن بن خالد وليس الأمير عبد الرحمن الداخل فى بناء المسجد الجامع بالجزيرة الخضراء(١) ، فالمسألة إذن لا تعدو أن تكون مجرد خلط بين تاريخ بناء جامع قرطبة وتاريخ بناء جامع الجزيرة الخضراء(٢) .

وأغلب الظن أن هذه الشكوك التى أبداها مؤرخو الفن الإسلامى فى اسبانيا ترجع إلى اقتناعهم ، قبل قيام الأستاذ ليفى بروفنسال بنشر نص ابن حيان بشأن أعمال الأمير عبد الرحمن الأوسط فى الجامع ، بأن زيادة عبد الرحمن الأوسط فى الجامع استغرقت ١٥ سنة ، اعتماداً على ما أورده ابن عذارى فى البيان ، إذ يشير إلى أن الزيادة قامت فى سنة ٢١٨ هـ ما بين الأرجل التى بين السوارى إلى القبلة(٣) ، وفى موضع آخر يؤكد أن الفراغ من هذه الزيادة كان فى جمادى الأولى سنة ٢٣٤ هـ(٤) . وقد عبر الأستاذ جومث مورينو عن ذلك بقوله : « . . . ويؤكد ذلك أن عبد الرحمن الأوسط الذى كانت ظروفه أفضل من ظروف عبد الرحمن الداخل استغرق ١٦ سنة لإتمام زيادته فى الجامع(٥) » ، كما عبر عنه الأستاذ لامبير بقوله : « وفى عهد عبد الرحمن الثانى ، على الضد من ذلك ، احتاج الأمير لأكثر من ١٥ سنة ، فقط لتوسيع بيت الصلاة إلى عمق أقل فى مساحته من مساحة بيت الصلاة بجامع عبد الرحمن الأول(٦) ، مع

---

(١) Al-Sayyid Sālem: *Cronología de la Mezquita de Córdoba*, p. 28.

(٢) يقول صاحب فتح الأندلس : «ولما فرغ الإمام من أمر الرماحس القايم بالجزيرة الخضراء ، ولاها عبد الله بن خالد ، وأمره ببنيان المسجد الجامع فيها ، وكان فى موضعه كنيسة » (فتح الأندلس ، ص ٦٧) .

(٣) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ١٢٦

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤٣

(٥) Gómez Moreno: *Excursión a través del arco de herradura*, p. 797.

(٦) Lambert: *De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande Mosquée de Cordove*, p. 179.

أن عبد الرحمن الأوسط كانت تتوفر لديه امكانيات بـلا شك أضخم ، وبناه أكثر عدداً وحذقاً من عبد الرحمن الأول » كما عبر عنه فى بحث آخر(١) .

ومن هنا تولد الشك والارتياب فى تاريخ بناء المسجد الأول بقرطبة ، ولكن النصوص الجديدة التى اكتشفها الأستاذ ليفى بروفنسال ونشرها أوضحت أن أعمال الأمير عبد الرحمن الأوسط تمت على مرحلتين : الأولى فى سنة ٢١٨ هـ ، والثانية فى سنة ٢٣٤ هـ . والواقع أن مدة عامين أو عام واحد لبناء مسجد عبد الرحمن الداخل ليست فترة قصيرة بحيث تثير مثل هذه المشكلة ، والأمثلة كثيرة على قيام أبنية أضخم من جامع عبد الرحمن الداخل وأفخم من الناحية الزخرفية ، فى فترات قصيرة(٢) ، الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن فترة بناء هذا الجامع الأول معقولة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن استخدام بعض مواد البنـاء القديمة كالأعمدة الرخامية والأحجار التى استغلها المهندس من الكنائس القوطية والرومانية المهدمة قد عجل بانتهاء أعمال البناء ، بالإضافة إلى أن الأمير كان يسعى لاتمام البناء فى أسرع وقت ممكن حتى يتيسر للمسلمين أداء صلواتهم الجامعة فى المسجد الجديد ، هذا مع اعتبار أيضاً أن مهندس الجامع قد راعى البساطة فى البناء وعدم التعقيد الذى من شأنه إطالة أمد البناء ، وظاهرة البساطة فى الواقع تسود بنـاء هذا المسجد وزخرفته باستثناء النظام المعمارى الرائع للعقود المتراكبة على صفين ، فالمظهر الزخرفى العام بسيط للغاية ويقتصر على تناوب الألوان الناشىء من استخدام قطع حجرية مع قوالب من الآجر الأحمر ، وكذلك تتجلى البساطة فى تخطيط الجامع ، فهو لا يعدو أن يكون بيتـاً للصلاة من تسعة بلاطات تنحصر بين

---

(١) Lambert: *L'histoire de la grande Mosquée de Cordove aux VIII^e et IX^e sièeles,* A. I. E. O. U. A. 1936, p. 165.

(٢) من هذه الأمثلة أن زيادة الحكم المستنصر فى جامع قرطبة ، على روعتها من حيث البنية والزخرفة واشتمالها على قبـاب أربعة وساباط لم تستغرق فترة تزيد على ٤ سنين ، ومئذنة الناصر لم يستغرق بناؤها أكثر من ١٣ شهراً ، وزيادة المنصور بن أبى عامر فى الجامع استغرق عامين ونصف ، وبناء جامع ابن عدبس بإشبيلية استغرق عاماً واحداً ، وبناء مدينة الزاهرة بقصورها استغرق عامين فقط ، وجامع الزهراء استغرق بناؤه وإتقانه ٤٨ يوماً فقط .

ثمانية صفوف من العقود المتعامدة على جدار القبلة ، والأسقف كلها أفقية لا تعترضها قباب مرتفعة تزيد من تعقيد البنـاء . كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن بناء المسجد لا يقتضى استغراق أكثر من عامين من عمل متواصل ، ولا شك أيضاً أن الأمير عبد الرحمن الداخل استخدم فى بنـاء هذا الجامع عدداً كبيراً من البنائين والعمل والفعلة حتى ينتهى البناء سريعاً ، وأنفق عليه مبلغاً كبيراً من المـال يصل إلى ثمانية ألف دينار[١] ، وهو مبلغ طائل تغنى به الشعراء ، ومنهم دحية بن محمد البلوى[٢] . وبالإضافة إلى كل ما سبق أن ذكرناه ، نذكر أيضاً أن الأمير لم يبن محراباً جديداً ، وإنمـا احتفظ بالمحرام القديم الذى ركز حنش الصنعانى قبلته ، فنقله من موضعه القديم إلى موضعه من البنية الجديدة[٣]. وقد ثبت من الحفريات التي أجريت فى موضعه من أرض الجامع أنه لم يكن بارزاً عن جدار القبلة[٤] ، ويعتقد الأستاذ توريس بلباس أنه كان يتخذ شكل حنية نصف دائرية[٥] .

ولم يتهيأ للأمير عبد الرحمن الداخل أن يتمم بنـاء عناصر المسجد كلها ، كالصومعة وسقائف النساء والميضأة ، فأتمها ابنه وخليفته هشام الرضا . وهكذا أمكننا استناداً على ما ذكرناه أن نثبت إمكانيات إتمـام بناء المسجد الذى أقامه عبد الرحمن الداخل بصورة تسمح بإقامة الصلاة فيه فى أقل من سنتين ، وإن كانت المصادر العربية لحت بأن المسجد لم يكمل فى عهد عبد الرحمن ممـا يقطع

---

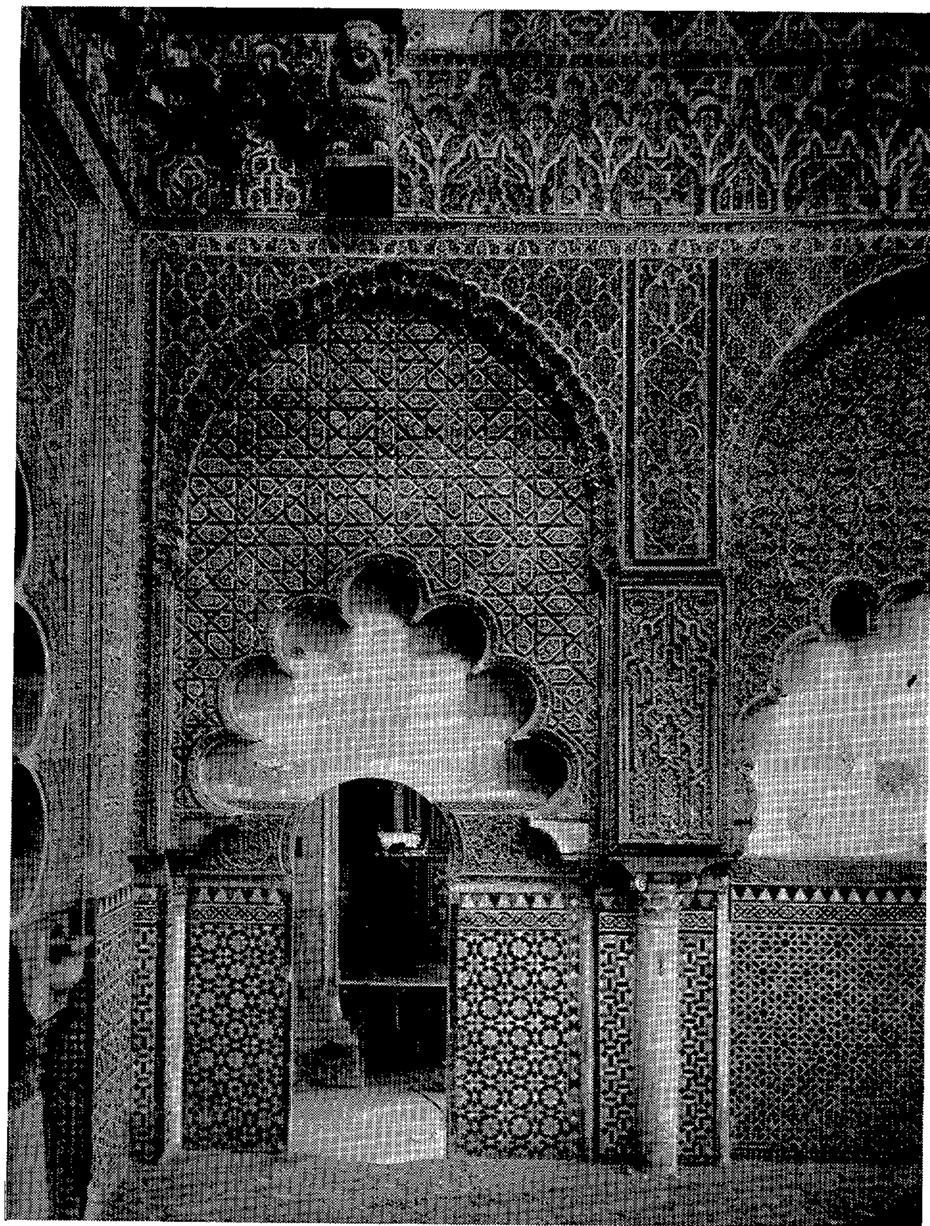
(١) يذكر الوزير الغسانى أنه أنفق ٢٠٠ ألف دينار (رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، نشرها سوفير مع الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٨٤ ، ص ٢١) . والواقع أنه اشترى موضع الجامع بمائة ألف دينار وأنفق فى بناء الجامع ثمانين ألف دينار (المقرى ، ج ٢ ص ٨٣) .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٧٠ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٢ — المقرى ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧

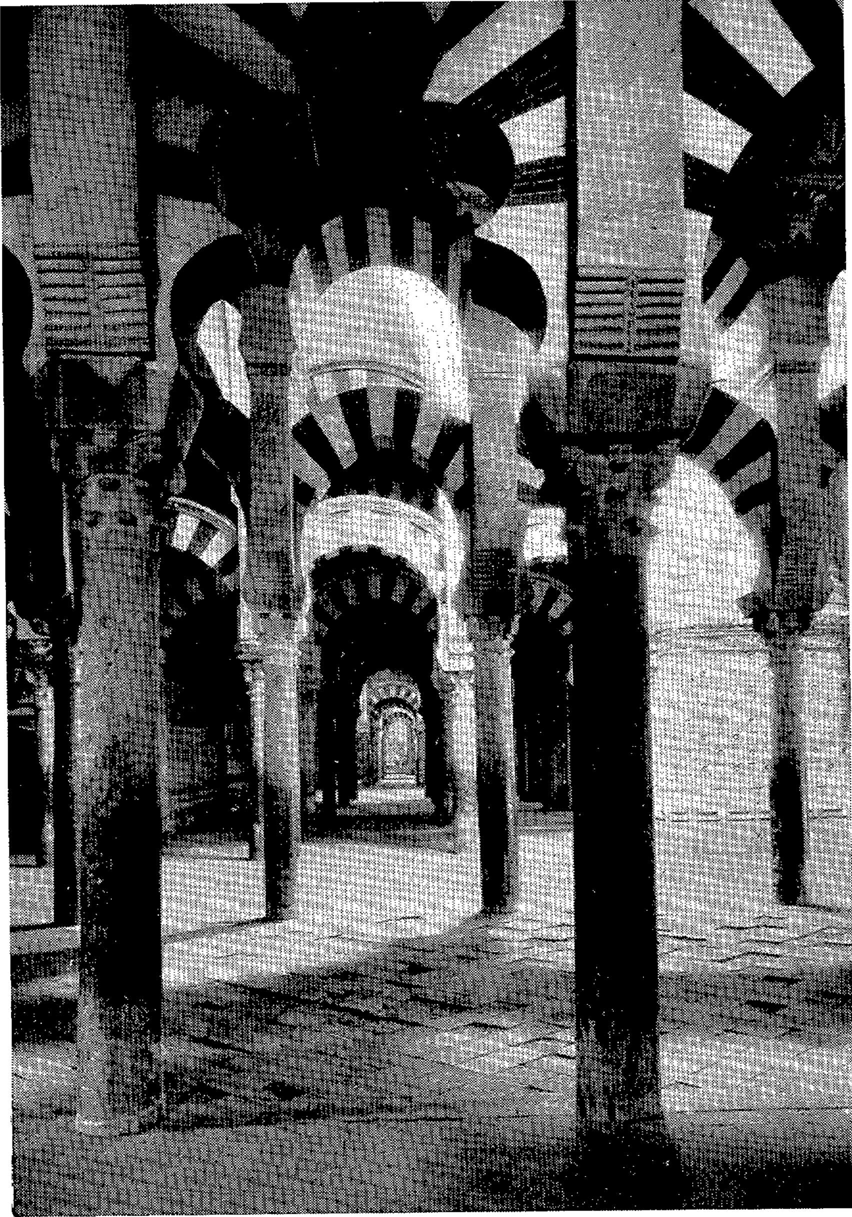
(٣) الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية ، عن ابن القوطية ، ص ٢٠٨

(٤) Gómez Moreno: *Ars Hispaniae*, p. 42.

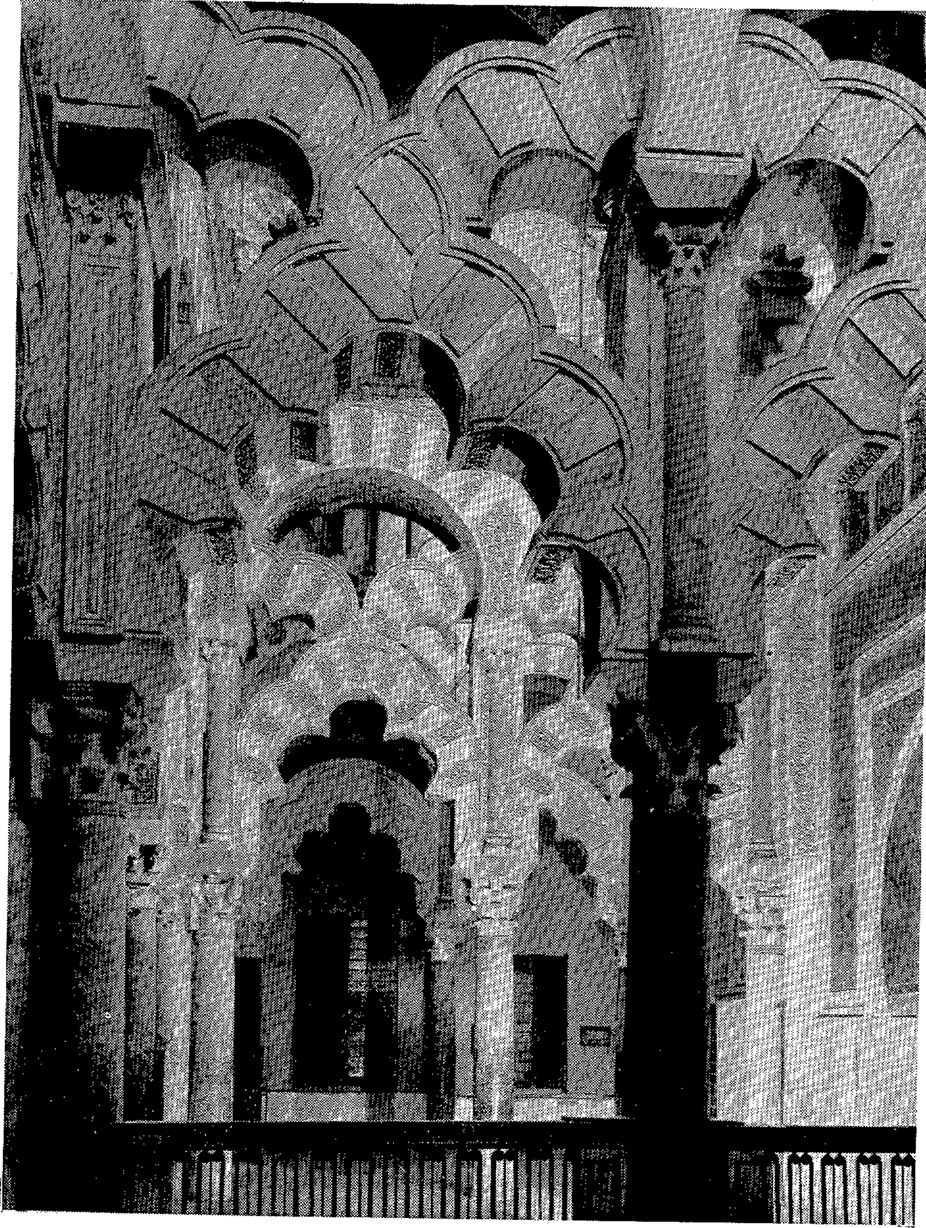
(٥) Torres Balbás: *Arte hispanomusulmán*, p. 351.



جامع قرطبة



جامع قرطبة



جامع قرطبة — المحراب



جامع قرطبة — ا

بأن أعمال البناء استمرت حتى بعد إقامة الصلوات فيه سنة ١٧٠ هـ إلى عام وفاة الأمير سنة ١٧٢ [١] .

مشكلة تحديد موضع الجامع بالنسبة للكنيسة

يجمع مؤرخو العرب الذين ضمنوا كتاباتهم أخباراً عن شروع الأمير عبد الرحمن الداخل فى بناء جامع قرطبة على أن موضع هذا الجامع كانت تشغله كنيسة ، ولكنهم لم يضيفوا إلى هذه الإشارة شيئاً من شأنه أن يوضح هذا الموضوع ، والمقرى هو الكاتب الوحيد الذى نقل إلينا إسم هذه الكنيسة ، فسماها كنيسة « شنت بنجنت » ، وهى الكنيسة التى اقتسمها المسلمون بعد فتح قرطبة مباشرة مع نصارى المدينة على نحو ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد فى دمشق بالنسبة لكنيسة يوحنا المعمدان ، وإن كان بعض المؤرخين يشك فى صحة خبر هذه الكنيسة الدمشقية [٢] . ومن هنا تولد الشك فيما ذكره الرازى بشأن

---

(١) هذا الرأى أبديته فى مقالتى عن تأريخ جامع قرطبة التى نشرت فى عام ١٩٥٤ ، وقد انتهى المرحوم الأستاذ توريس بلباس إلى الأخذ به فى سنة ١٩٥٧ فى بحثه الطويل عن الفن الإسلامى فى الأندلس بعنوان *Arte hispanomusulmán hasta la caída del Califato de Córdoba.* إذ يقول : « لا يمكننا أن نثق ثقة كبيرة إلى التاريخين المذكورين ١٦٨ — ١٦٩ هـ لما نعلمه من الأخطاء المتكررة التى ترد فى النصوص التى وصلت إلينا من خلال نسخ متعاقبة ، الأمر الذى أدى إلى تحريف الكتابة الأصلية . إن التواريخ التى نعتقد وجوب الأخذ بها هى تاريخ ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) الذى يسجل ضم الكنيسة من أعاجم قرطبة ، وتاريخ سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) كتاريخ الشروع فى قيام المسجد بوظيفته فى الوقت الذى لم يتم بناء هذا المسجد فى أجزاء منه وأعمال أخرى ثانوية » (المرجع السابق ، ص ٣٤٥)

(٢) Creswell: *Early Muslim Architecture*, vol. II, p. 102, sqq. - *A short account of Early Muslim Architecture,* Penguin Series, 1958, pp. 65-72 - Torres Balbás: *Arte hispano-musulmán,* p. 341.

ونفهم من مناقشة الأستاذ كرزول أن كنيسة دمشق المعروفة بإسم يوحنا المعمدان ظلت قائمة ، وفى حالة سليمة ، حتى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فهدمها ، وأن مسألة التقسيم التى أثارها مؤرخو العرب وجغرافيوهم (أمثال البلاذرى وابن الفقيه الهمذانى والطبرى وابن قتيبة والمسعودى وابن عساكر وابن جبير) فتختص بالسياج الخارجى المقدس للمعبد الوثنى الذى بقى قائماً بعد قيام تيودوسيوس ببناء الكنيسة غربى المعبد .

تقسيم كنيسة شنت بنجنت بقرطبة بين المسلمين والنصارى وقد تأكد ذاك الشك فى صحة التقسيم منذ ظهور نتائج الحفريات الأثرية التى أجريت فى أرضية بيت الصلاة الأقدم فى عامي ١٩٣٢—١٩٣٣ ، فهى لم تؤد إلى الكشف عن آثار كنيسة أو بازيليكية ، باستثناء آثار رومانية ظهرت على عمق كبير ، وتقتصر على بعض بقايا فسيفساء رومانية وأسس منازل ، تعلوها آثار لأسس بناء خرب أرضيته من الملاط ، وجدرانه من البناء غير المنتظم ، يتألف من ثلاثة أروقة تتجه من الشرق إلى الغرب[١] . ولكن هذا الكشف لم يقنع علماء الفن الإسلامى الأندلسى ، إذ لا يمكن لهذه الآثار الفقيرة من الناحية الفنية أن تكون لكنيسة قرطبة العظمى ، وعندئذ نشأت فكرة احتمال استغلال عبد الرحمن الداخل لبعض جدران الكنيسة العظمى بقرطبة فى مسجده الذى بناه فيما بين عامى ١٦٨ ، ١٧٠ هـ[٢] ، وفى هذا تفسير لقصر أمد فترة بناء هذا الجامع .

وتبقى مع ذلك حقيقة ثابتة هى قيام عبد الرحمن الداخل ببناء جامع قرطبة فى الموضع الذى كانت تقوم عليه كنيسة . ولكن المشكلة التى نواجهها تتركز فى هذه الحالة فى معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة :

فى أي مكان من الكنيسة أو بمعنى أصح فى أي شطر من الكنيسة القديمة أقيم المسجد الذى ركز حنش الصنعانى قبلته ؟ وإلى أى حد استغل المسلمون بنيان هذه الكنيسة ؟ وأين كان موقع النصف الثانى من الكنيسة الذى اشتراه عبد الرحمن الداخل من أصحابه النصارى ؟ . وتصمت المصادر العربية صمتاً مطبقاً عن الإجابة على هذه الأسئلة . ولذلك حاولت هنا أن أجيب عليها بقدر استطاعتى ، مستخدماً الاستدلال المنطق مستعيناً بما أمكننى استخلاصه من الإشارات التى أوردها المؤرخون العرب ، مع مناقشة أصحاب الرأي القائل بأن موضوع تقسيم كنيسة شنت بنجنت بعد الفتح لا يقوم على أساس تاريخى ، وأن الكنيسة

---

(١) Gómez Moreno: *Ars Hispaniae*, t. III, p. 20, 29 - Torres Balbás: *Arte hispano-musulmán*, p. 341.

(٢) Gómez Moreno: *Ars Hispaniae*, p. 29.

ظلت قائمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل ، وأنه إذا كان هناك تقسيم حقيق حدث فى الكنيسة فإنه — حسب هذا الرأي — يقع فيما بين عامي ١٣٠ ، ١٣٨ هـ[١] . ويعتبر دوزى أول من أبدى رأياً فى تقسيم كنيسة قرطبة . فهو يرى أن نصارى قرطبة كانوا يتمتعون بكاتدرائيتهم حتى سنة ٧٤٧ م (١٣٠ هـ)[٢] ، ويستند فى هذا الرأى على النص التالى الذى اقتبسه من أخبار مجموعة : « ثم أتى بالأسرى ، وقعد لهم الصميل فى كنيسة كانت فى داخل مدينة قرطبة ، وهى اليوم موضع مسجدها الجامع ، فضرب أوساط سبعين منهم[٣] » . ويعلق دوزى على ذلك بقوله : « لم يكن نصارى قرطبة يحتفظون إلا بالكاتدرائية المعروفة بشنت بنجنت ، إذ كانت كنائسهم الأخرى قد هدمت ، وكانت معاهدة الصلح (التى عقدها العرب الفاتحون معهم) قد منحتهم حق ملكية هذه الكاتدرائية »[٤] . ثم يذكر دوزى أيضاً أن هذه المعاهدة احترمت طوال سنين عديدة ، ولكن لما كانت قرطبة قد تلقت سيلا دافقاً من السكان بوفود الأجناد الشامية ، وأصبحت مساجدها لا تتسع لمثل هذه الكثرة العددية ، فقد فكر الشاميون فى أن يفعلوا ما فعلوه فى دمشق وحمص وفى مدن أخرى من وطنهم ، حيث شاطر المسلمون النصارى فى كنائسهم لإقامة مساجد ، ووافقت حكومة قرطبة على هذا النظر ، وبذلك أرغم نصارى قرطبة على التنازل عن نصف كاتدرائيتهم[٥] » ولا ينبغى أن نترك ما ذكره دوزى دون مناقشة ، فأول كل شيء نلاحظ أن دوزى يعتمد على نص الرازى ، فيقتبس منه ما يخص كنيسة قرطبة العظمى وتهديم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، وفقاً للعهد الذى صولح عليه أهل قرطبة ، بل

---

(١) Ocaña Jiménez: *La Basílica de San Vicente y la gran Mezquita de Córdoba,* al-Andalus, vol. VI, 1942, p. 356.

(٢) Dozy: *Histoire des Musulmans d'Espagne,* nouvelle édition, Leiden, 1932, t. I, p. 281.

(٣) أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، نشره دون لافوينتى القنطرة ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٦٠ — ٦١

(٤) Dozy: *Op. cit.,* p. 281.

(٥) Ibid.

يقتبس أيضاً من هذا النص ما رواه الرازى خاصاً بشراء عبد الرحمن لنصف الكنيسة الآخر . ومع ذلك فإنه لا يقر بمبدأ تقسيم الكنيسة زمن الفتح وهو ما أكده الرازى وأشار إليه بصورة لا تدع مجالا للشك . ثم إنه يزعم بعد ذلك أن قرطبة كانت تضم منذ الفتح الإسلامي مساجد أخرى غير الجامع الذى أسسه حنش ، ولكننا لم نعثر حتى الآن على نص يؤكد انشاء جامع آخر غير الجامع الذى أنشأه حنش الصنعانى فى قرطبة . والمعروف أن المسجد الجامع هو أول بناء يؤسس فى المدن الإسلامية أو فى المدن التى فتحها المسلمون ، وهو المسجد الذى تقام فيه صلوات الجمعة ، والمعروف أيضاً أن المسلمين لم يؤسسوا شيئاً بعد الفتح الإسلامى لقرطبة إلا الجامع الذى أقامه حنش الصنعانى ، وقد أضيفت إليه سقائف متصلة حتى يتسع بيت الصلاة فيه لأكبر عدد من المصلين ، ثم القنطرة التى رمم السمح بن مالك الخولانى بناءها من حجارة سور قرطبة القديم لحداثة عهدهم بالأندلس ، وعدم توصلهم بعد إلى معرفة مواضع المحاجر ومقاطع الصخر فى هذه البلاد . ثم يؤكد دوزى بصفة قاطعة — ولكن بدون حق له فى ذلك — أنه بعد عام ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) (وكان النصارى وفقاً لرأيه يتمتعون حتى هذا التاريخ بملكية كاتدائيتهم) وبعد أن تضاعف عدد سكان قرطبة بسبب وفود الأجناد الشامية إلى الأندلس ، أرغمت حكومة قرطبة نصارى هذه المدينة على التخلى عن نصف كنيستهم ، وهو تأكيد لا يثبته أى نص تاريخى أو حتى أى استدلال منطق لأننا لو سلمنا جدلا أن هذا قد حدث فعلا وأن المسلمين اغتصبوا نصف كنيستهم ، فلماذا إذن يكلف الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه مشقة استحضار النصارى ومفاوضتهم ، وإلحاحه فى شراء نصف كنيستهم الباقية ، ولم يلجأ هو الآخر إلى سياسة الضغط ؟ ولماذا أعطاهم حق إقامة كنيستهم المهدمة خارج الأسوار نظير تخليهم عن هذا النصف ؟ إنني لا أرى موجباً لنفى تقسيم الكنيسة بعد الفتح بين المسلمين والنصارى ، وإقامة مسجد جامع فى الشطر الذى آل إلى المسلمين من الكنيسة ، وفقاً لمعاهدة الصلح ، وأعتقد أن المسلمين احترموا هذه المعاهدة حتى تاريخ قيام الأمير عبد الرحمن الداخل ببناء المسجد الجامع الجديد .
وينبغي أن نشير بهذه المناسبة إلى أن عبد الرحمن بشرائه النصف الآخر من

الكنيسة لم ينقص هذه المعاهدة ، لأنه اشتراه بموافقة أصحابه ، ونلاحظ أن بناء المساجد الجامعة عند الفتح كان تقليداً متبعاً ، فموسى بن نصير لم يغادر الجزيرة الخضراء إلا بعد أن أسس جامع الرايات ، كما أن حنش الصنعانى هو الذى أسس مسجدى إلبيرة وسرقسطة[١] . أما اختيار المسلمين لكنيسة قرطبة العظمى موضعاً لبنـاء مسجدهم فى شطر منها ، فلا يسجل حالة فريدة من نوعها فى الأندلس ، وقد فعل المسلمون مثـل ذلك فى اشبيلية عندما أقاموا مسجدهم فى كنيسة ربينة[٢] ، وفى طليطلة عندما أقاموا مسجدها الجامع[٣] ، وهو أمر إن دل على شىء فعلى رغبة الفاتحين فى تسجيل انتصارهم من الناحية الدينية ، وقد فعل الإسبان نفس الشىء عند استيلائهم على مدن الأندلس ، إذ حولوا مساجدها الجامعة إلى كاتدرائيات ، ومساجدها الصغيرة إلى كنائس ،

وحذا سيمونت حذو دوزى ، فأشار إلى أن الكنيسة كانت فى سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) فى حوزة النصارى[٤] . أما الأستاذ كرزول ، فيؤكد تأكيداً حاسما بأنه لم يبن فى قرطبة مسجد منذ الفتح ، وأن قائمة الكنائس القرطبية التى كانت قائمة بقرطبة قبل الفتح الإسلامى والتى أعدها فلوريث لا تتضمن ذكر كنيسة بإسم سان فنسان[٥] ، وينكر الأستاذ كرزول أيضاً حادثة تقسيم الكنيسة بين نصارى قرطبة والمسلمين ، ويعتقد أن ابن جبير هو الذى ابتكر قصة تقسيم كنيسة دمشق وأتى بها إلى الأندلس فى نهاية القرن الثانى عشر ، فاقترنت بجامع قرطبة بعد ذلك بمهد قصير ، ثم أدمجت القصة فى مدونة الرازى خلال القرن الثالث عشر ومنها استقى كل من ابن عذارى والمقرى[٦] روايته ومعنى ذلك أن

---

(١) الحميرى ، ص ٢٩ ، ٩٧ — المقرى ، جـ ٤ ص ٦

(٢) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١١ يقول ابن القوطية : « وكان (عبد العزيز) قد ابتنى على بابها المسجد الذى قتل فيه » .

(٣) Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane,* t. III, p. 224, note 4.

(٤) Simonet: *Historia de los Mozárabes de España,* Madrid, 1897, p. 201.

(٥) Creswell: *Early Muslim Architecture,* vol. II, pp. 138-139.

(٦) Creswell: *A short account of Early Muslim Arch.* p. 213.

المسلمين لم يكن لديهم مسجد جامع زهاء ٧٥ سنة ، وهذا محال من الوجهة العملية والمنطقية . ويأخذ الأستاذ اوكانية خيمنث برأى دوزى[١] ويؤكد أنه إذا كان البناء قد اتخذ كله أو جانب منه مسجداً للمسلمين فإن المذبحة التى وقعت فيه (ويقصد بها جلوس الصمويل فى سنة ١٣٠ هـ فى كنيسة قرطبة وذبحه أسارى اليمنية) تصبح أمراً غير مقبول . ولكن الأستاذ خيمنث نسى بلا شك أن النص الذى اعتمد عليه فى ذلك يشير إلى أن المذبحة المذكورة جرت فى داخل الكنيسة وليست فى داخل المسجد ، وأن هذا النص الذى اعتمد عليه يؤكد على نقيض ذلك أن جزءا من الكنيسة احتفظ به النصارى فى هذا التاريخ . وأعتقد أن المقصود بالكنيسة فى النص المذكور ، نصف الكنيسة الذى آل إلى نصارى قرطبة بعد أن فتح المسلمون مدينتهم ، فإن كلمة كنيسة تعنى البناء الذى يقوم فيه النصارى بأداء شعائر الدين المسيحى ، ولا شك أن الكنيسة التى اقتسمت بين النصارى والمسلمين كانت تضم مرافق وملحقات مختلفة ، كمصليات ومعمودية ودار أسقفية إلى آخر ذلك كما يؤكد الأستاذ خيمنث نفسه[٢] ، وأن مسجد حنش أقيم فى موضع كانت تشغله بعض ملحقاتها المذكورة ، ولا شك أيضاً أن هذه الكنيسة التى يشير إليها النص العربى كانت كما يفترض الأستاذ خيمنث نفسه قد هجرها النصارى فى ذلك التاريخ حتى أصبحت على هذا النحو مسرحاً لمثـل هذا العمل البشع[٣] . ولكى يدعم الأستاذ خيمنث نظريته ، استشهد بنص ورد فى كتاب « فتح الأندلس » جاء فيه أن قرطبة افتتحت صلحاً على أن يترك للنصارى الكنيسة التى تقع فى ذلك الحين فى غرب قرطبة[٤] ، فالكنيسة فى اعتقاده لا يمكن أن تقع خارج الأسوار وإنما فى مدينة قرطبة حيث لم يكن فى حوزة النصارى وقتئذ سوى البازيليكية[٥] . ومع ذلك ، فإننى أعتقد أن صاحب

(١) Ocaña Jiménez: *La Basílica de San Vicente y la gran Mezquita de Córdoba*, al-Andalus, 1942, p. 349.

(٢) Ibid., pp. 361-366.

(٣) Al-Sayyid Sālem: *Op. cit.*, p. 6.

(٤) فتح الأندلس ، ص ٩ من الترجمة الاسبانية .

(٥) Ocaña Jiménez: *Op. cit.*, p. 349.

فتح الأندلس كان يعنى كنيسة شنت أجلح خارج الأسوار التى أشار إليها أيضاً صاحب أخبار مجموعة بقوله : « فلما بلغ الملك دخولهم ، خرج فى جملة من أصحابه ، وهم أربعمائة أو خمسمائة ، ومن خرج معه من باب المدينة الغربى يقال له باب اشبيلية ، فتحصن بكنيسة فى غربى المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة وهى شنت أجلح[١] » . وكانت هذه الكنيسة التى أشار إليها مؤلف أخبار مجموعة تقع وفقاً لما أورده مؤلف كتاب فتح الأندلس فى الربض[٢] ، أى فى المنطقة الواقعة خارج الأسوار الغربية ، وبالذات خارج باب اشبيلية المعروف فى عهده بباب العطارين[٣] ، وقد أورد المقرى نصاً يتفق فيه مع صاحب فتح الأندلس على الموضع الذى تقوم فيه كنيسة شنت أجلح[٤] .

كذلك نستطيع أن نستنتج من النص الذى استشهد به الأستاذ خيمنث أن هذه الكنيسة كانت حصينة ذات بنيان وتقانة يأتيها الماء فى جوف الأرض من عين فى سفح الجبل[٥] ، وأنها لم تهدم تماماً بعد الفتح ، إذ ورد ذكرها بعد ذلك تحت اسم كنيسة الأسرى[٦] ، أو كنيسة الحرقى[٧] ، وأن النصارى كانوا يعظمونها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ، ولا شك أنها المقصودة بقول القاضى عياض فى كتابه الشفاء عند تعرضه لذكر قرطبة . « إن دور قرطبة أربعة عشر ميلا ، وعرضها ميلان ، وهى على النهر الكبير ، وعليه جسران ، وبها الجامع الكبير الإسلامى ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى[٨] » ، ولعلها كانت موضع هذا التعظيم لصبر من التجأ إليها عند دخول المسلمين قرطبة على البلاء .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١٢

(٢) فتح الأندلس ، ص ٩ — ١٠ من الترجمة الاسبانية .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩

(٤) المقرى . نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٥

(٦) أخبار مجموعة ، ص ١٤ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٥ — المقرى ، ج ١ ص ٢٤٦

(٧) المقرى ، ج ١ ص ٢٤٦

(٨) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦١

لكل هذه الأسباب أعتقد أن النص الذى اعتمد عليه الأستاذ خيمنث يشير إلى كنيسة شنت أجلح ، لا إلى كنيسة شنت بنجنت ، التى كانت تقع فى داخل مدينة قرطبة تحت السور[١] . فلما طلب عبد الرحمن من نصارى قرطبة بيع نصف الكنيسة الذى كان فى حوزتهم ، أبوا بادىء ذى بدء ، ولكنهم سألوه ، بعد أن ألح عليهم فى ذلك أن يسمح لهم ببناء كنيستهم المخربة خارج المدينة ، وأغلب الظن أنهم كانوا يقصدون كنيسة شنت أجلح المعطلة منذ الفتح الإسلامى لقرطبة .

ونستطيع أن نؤكد ، من المناقشة السابقة ، أن المسلمين شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم المعروفة بشنت بنجنت ، وأنهم أقاموا فى القسم الذى آل إليهم مسجداً أسس حنش الصنعانى وعبد الرحمن الحبلى التابعيان محرابه بأيديهما ، وركز قبلته . ويبدو أن اتجاه القبلة كان محرفاً نحو الجنوب ، ولكن أمراء بنى أمية لم يفكروا قط فى تعديلها ، بل إن الأميرين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط حرصا على الاحتفاظ بالمحراب الأقدم[٢] ، وظلت القبلة على هذا الانحراف حتى بعد قيام الخليفة الحكم المستنصر بإجراء الزيادة فى جامع قرطبة[٣] .

وأعتقد أن جامع قرطبة فى عصر الولاة كان يشغل جزءا من الكنيسة ، لعله فناؤها أو إحدى ملحقاتها ، أما الكنيسة الفعلية بمذبحها وأروقتها فكانت فى الشطر الذى آل إلى نصارى قرطبة ، وقد رجحت فى مقالى السابق عن تأريخ جامع قرطبة فكرة قيام المسجد البسيط الذى يسهل هدمه فى فناء المسجد الذى أسسه الأمير عبد الرحمن الداخل[٤] ، فلما عزم عبد الرحمن على بناء جامعه الجديد ، هدم هذا المسجد القديم ، وجعله صحناً فسيحاً لمسجده الجديد بينما أصبح الوضع

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٤٣ — أخبار مجموعة ، ص ٦١ — المقرى ، ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧

(٢) الرسالة الشريفية فى الأقطار الأندلسية ، ص ١١٦ — ١١٧ (يقول صاحب هذه الرسالة أنه ورد فى الأثر أن قبلة حنش الصنعانى بجامع قرطبة « روضة من رياض الجنة ، وبقيت إلى بنى أمية ، وبنى بنياناً آخر لم يهدم المحراب ، ومشى على حمر خشب إلى أن وقف فى موضعه اليوم تبركاً به) .

(٣) المقرى ، ج ٢ ص ٩٨

(٤) Sālem: *Cronología de la Mezquita de Córdoba*, pp. 401-402.

الذى كانت تقوم فيه الكنيسة بيت الصلاة للمسجد الجديد . ويستند هذا الرأى الذى نبديه على نص هام أورده المقرى وجاء فيه : « وقال بعض المؤرخين فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنه لما تمهد ملكه ، شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ووسع فناءه »(١) وكان من الطبيعى أن يكون توسيع الفناء على حساب المسجد القديم الذى ابتناه الفاتحون من اللبن وسقفوه بالسقائف المتلاصقة المقامة سريعاً دون تخطيط سابق ، بحيث كانت كلما أضيفت إلى السقائف سقائف أخرى كلما قل ارتفاع السقف ، لأن زيادة هذه الأسقف كانت تتم من الجهة الشمالية لا الجنوبية التى كانت تتركز فيها القبلة ، وهذا دليل واضح على أن هذه السقائف كانت تقع إلى شمال المسجد الذى أقامه عبد الرحمن ، لأن الأرض كانت تتدرج فى الارتفاع فى شمال المسجد ، فكلما التصقت سقيفة جديدة مع السقائف الأخرى كلما تطامنت الأسقف ، وصعب على المسلمين الصلاة وقوفاً . وكان من الطبيعى أيضاً أن يجعل عبد الرحمن الداخل صحن مسجده فى الجهة الشمالية التى كان يقوم فيها المسجد القديم بسقائفه ، لأن بناء هذا المسجد القديم كان بسيطاً من السهل إزالته دون مشقة ، بينما كان من الصعب هدم الكنيسة المبنية من الحجارة . وعلى هذا الأساس ، فإن كنيسة شنت بنجنت كانت تشغل الجانب الأعظم من بيت الصلاة فى جامع عبد الرحمن الداخل الذى أقيم على الجانب الغربى من مجموع المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة فيه ، ونستند فى ذلك أيضاً على نص أورده الحميرى يؤكد أن الكنيسة كانت تقوم فى القسم الغربى من المسجد الجامع بقرطبة بعد أن استكمل صورته النهائية ، جاء فيه أنه لما تأخر المعتمد بن عباد عن دفع الإتاوة التى كان يفرضها عليه الفونسو السادس ملك قشتالة ، أمعن هذا فى التجنى ، « فسأل فى دخول امرأته القمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها ، حيث أشار إليه بذلك القسيسون والأساقفة

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٨٤

لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى منه ، معظمة عندهم ، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم » (١)

ويبقى علىّ بعد هذا أن أوضح إلى أى حد استفاد الأمير عبد الرحمن من الكنيسة فى بنيان جامعه الجديد ، وهذا الموضوع يدخل فى مشكلة بلاطات الجامع .

مكشلة عدد بلاطات المسجد
الذى أقامه عبد الرحمن الداخل

رأينا أن الأمير عبد الرحمن الداخل شرع فى بناء الجامع فى سنة ١٦٨ ﻫ ، ولكن الجامع « لم يكمل فى زمانه ، وكمل فى زمان ابنه هشام(٢) » ، ذلك لأن الأمير توفى فى سنة ١٧٢ ﻫ دون أن يستكمل الجامع جميع عناصره المعمارية (٣) كالمئذنة وسقائف النساء والميضأة(٤) ، والظاهر أنه لم يتح له إقامة هذه المئذنة لانشغاله بإتمام أعمال البناء التكميلية فى المسجد وبناء مساجد أخرى بنواحى قرطبة ، فإذا كان المسجد قد أصبح سنة ١٧٠ ﻫ صالحاً لإقامة الصلوات ، إلا أنه كانت تنقصه كثير من الأعمال البنائية الأخرى التى تستلزم وقتاً كافياً لبنائها ، بسبب قيام الجامع بممارسة وظيفته منذ عام ١٧٠ ﻫ الأمر الذى كان يعطل القيام بهذه الأعمال . ويبدو أن عبد الرحمن الداخل كان قد قنع بأحد أبراج قصر قرطبة المجاور ، ولعله كان يقع فى سور القصر الشرقى قرب الركن الشمالى

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٤

(٢) المقرى ، ج ٢ ص ٨٣ . ويقول المقرى فى موضع آخر : « ومن محاسنه (أى هشام) أيضاً إكمال بناء الجامع بقرطبة ، وكان أبوه شرع فيه » (المقرى ، ج ١ ص ٣١٧ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ ﻫ ، ج ٤ ص ١٢٥) .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢١ — المقرى ، ج ١ ص ٣٠٨

(٤) يحدد ابن عذارى هذه الأعمال بقوله : « وهشام هذا هو الذى أكمل سقائف المسجد الجامع بقرطبة ، ورفع منارته القديمة ، وبنى الميضأة العجيبة » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٢) .

الشرق ليقوم مقام المئذنة ، وكان المسلمون فى عصر الولاة يتخذونه كمئذنة لمسجد حنش الصنعانى [١] .

فلما تولى هشام إمارة قرطبة (١٧٢ — ١٨٠ هـ) أكمل الأعمال التى لم يتهيأ لعبد الرحمن أن يكملها فى حياته ، وهى بنـاء المئذنة وسقائف النساء ومجنبات الصحن وحوض الوضوء ، فأقامها هشام من خمس فىء حملته بأربونة [٢] ، وقد اهتدى المهندس الأثرى دون فيليث هرناندث إلى موضع المئذنة ، وأجرى فيه حفريات أثرية أسفرت عن كشف أساس قاعدتها المربعة وقد بلغ خمس فىء أربونة خمسة وأربعين ألفـاً من الذهب العين [٣] ، ومن هذا الخمس أكمل بنـاء جامع قرطبة ، ورمم القنطرة ، وبنى جانباً من القصر ، وبنى مسجداً أمام باب الجنان . ونخرج من ذلك بأن نفقات البناء على الجامع كانت قليلة بالنسبة لما أنفقه أبوه عبد الرحمن الداخل فى بناء الجامع ، فقد رأينا أن الداخل أنفق فى شراء الكنيسة مائة ألف دينار ، وأنفق فى بناء الجامع ثمانين ألفاً ، وهو مبلغ كبير يبرر الأشعار المادحة التى قيلت فى بنائه ووصف سقفه الخشبية المذهبة . والواقع أن أعمال هشام فى المسجد كانت جميعها تكميلية لم تكلفه النفقات الهائلة التى كلفت أباه من قبل ، مما يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن نظام العقود المتراكبة فى بيت

---

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة (ص ٩٣) : « وحصر أبو عثمان فى صومعة المسجد الجامع التى فى القصر » . ويقول المقرى (جـ ٤ ص ٣٣) أنه دخل يوسف الفهرى قصر قرطبة « تحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع ، فاستنزله بالأمان » . وقد كان بقصر قرطبة المجاور للجامع على حد قول ابن بشكوال عدد من القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراؤون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » (المقرى ، جـ ٢ ص ١٢) وكان أى برج من هذا الأبراج يصلح للأذان .

(٢) ابن القوطية ، ص ٤٣ — المقرى ، جـ ٢ ص ٩٧

وينسب الأستاذان مارسيه وهنرى تراس هذه النفقات إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، والظاهر أنه اختلط عليهما الأمر بين الداخل وابنه هشام (راجع :

Georges Marçais: *Manuel d'art musulman,* t. I, Paris, 1926, p. 215 - G. Marçais: *L'architecture musulmane d'Occident,* Paris, 1954, p. 137 - Terrasse: *L'art Hispano-Mauresque,* Paris, 1932, pp. 59-60.)

(٣) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٩٥

الصلاة هي من عمل الأمير عبد الرحمن الداخل ، خاصة وأن الشعراء وصفوا الأسقف المذهبة ، ولا يمكن للأسقف أن تقام قبل إقامة الأقواس وما يعلوها من الجدران التى تحمل السقف المذكورة .

وبقى أن نعرف عدد بلاطات مسجد الأمير عبد الرحمن الداخل ، وهذا يؤلف فى حد ذاته إحدى المشكلات الرئيسية فى تأريخ جامع قرطبة . وقد انقسم المؤرخون أيضاً بالنسبة لهذه المشكلة إلى فريقين : فريق يقول بأن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على ١١ بلاطاً ، وهذا الفريق يعتمد أساساً على نتائج الحفريات التى أجريت فى أرضية بيت الصلاة دون اعتبار للنصوص التاريخية . والفريق الثانى ينادى بأن هذا المسجد كان يشتمل على تسعة بلاطات ، ويستدلون فى ذلك على ما ورد فى النصوص التاريخية وبعض الظواهر الفنية فى المسجد . ثم ظهر رأي ثالث يحاول التوفيق بين الرأين .

وكان يتزعم النظرية القديمة القائلة بالإحدى عشر بلاطاً الأثرى الكبير أستاذى السنيور جومث مورينو ، الذى يذهب إلى أن جزءا من المسجد وعلى الأقل الجدار الغربى من جامع عبد الرحمن الداخل ، لا يعدو أن يكون نفس جدار البازيليكية ويرجع عهده إلى القرن السادس الميلادى على نحو باب اشبيلية بقرطبة الذى يماثله من حيث نظام البناء[١] . ولكن الأستاذ كرزول فند هذه النظرية ، فذكر أولا أنه من الطبيعى أن يكون أول عمل فنى أقامه المسلمون فى اسبانيا استمراراً للأسلوب الشائع عند قدومهم إلى هذه البلاد على نحو ما حدث فى سورية . ثم إن الركائز التى تقسم الجدار الغربى لهذا المسجد إلى مسافات منتظمة ، توحى بافتراض وجود كنيسة من ثلاثة أروقة متساوية فى الاتساع ، وهو أمر لا يتفق مع هذه النظرية . يضاف إلى ذلك أن الأستاذ فليث هرنانذث عثر فى الحفريات التى أجراها فى أرضية مسجد عبد الرحمن الداخل على آثار هامة لأبنية سابقة لا تمت بصلة إلى تخطيط أى جزء من البنيان الحالى[٢] . ولقد أيد الأستاذ

---

(١) Gómez Moreno: *La civilización árabe y sus monumentos en España*, Revista de Arquitectura, Madrid, 1914, p. 310 - Gómez Moreno: *Excursión*, pp. 797-798.

(٢) Creswell: *Early Muslim Architecture*, vol. II, p. 153 - *A short account*, p. 223.

كامبس إى كاثورلا نظرية الأستاذ جومث مورينو ، ونسب الباب المعروف ببوابة سان استيبان إلى الكنيسة ، وقدر عدد بلاطات الجامع الأموى الأول بأحد عشر بلاطاً[١] . وكذلك يوافق الأستاذ تراس على أن جامع عبد الرحمن الداخل كان يتألف من أحد عشر بلاطاً ، ولكنه يرى أن باب سان استيبان من عمل عبد الرحمن الداخل[٢] . ويؤيد الأستاذ كرزول رأى الأستاذ جومث مورينو فى عدد بلاطات مسجد عبد الرحمن الداخل على الرغم من معارضته له القول بأن الجدار الغربى من هذا المسجد هو نفس جدار الكنيسة[٣] . أما الأستاذ إيلى لامبير فقد قبل بادىء ذى بدء — مع بعض التحفظ — رأى الأستاذ جومث مورينو فى عدد البلاطات[٤] . وهكذا أخذ معظم مؤرخو الفن الأندلسى برأى الأستاذ جومث مورينو فى عدد بلاطات هذا المسجد[٥] . غير أن النصوص التاريخية التى اكتشفها الأستاذ ليفى بروفنسال خاصة بجامع قرطبة فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط والتى نقلها المؤرخ الأندلسى ابن حيان عن مؤرخين معاصرين للزيادة أمثال الرازى والحسن بن مفرج ومعاوية بن هشام القرشى وابن النظام حددت تحديداً دقيقاً عدد بلاطات الأمير عبد الرحمن الداخل ، ووضحت أعمال الأمير عبد الرحمن الأوسط فى الجامع . وتؤكد هذه النصوص أن جامع عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على ٩ بلاطات ، فأضاف إليها الأمير عبد الرحمن الأوسط بلاطين جانبيين فى سنة ٢١٨ هـ بحيث أصبح مجموع بلاطات المسجد

---

(١) Camps y Cazorla: *Arquitectura Califal y Mozárabe*, Cartillas de arquitectura española, t. IV, Madrid, 1929, p. 10.

(٢) Terrasse: *L'art Hispano-Mauresque*, p. 60.

(٣) Creswell: *A short account*, p. 214.

(٤) Elie Lambert: *De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande Mosquée de Cordove*, pp. 177-188 - Lambert: *Las tres etapas constructivas de la Mezquita de Córdoba*, al-Andalus, 1935, pp. 139-143.

(٥) Calzada: *Historia de la arquitectura española*, p. 27 - Pijoan, Summa Artis, t. III, p. 58 - Castejón: *La portada de San Esteban*, B. R. A. B. L. N. A. N.° 51, 1944, p. 492 - Torres Balbás: *La Mezquita de Córdoba y Madinat al-Zahra*, Madrid, 1952, p. 22- *Ars Hispaniae*, t. IV, p. 345.

إحدى عشر بلاطاً ، ثم مد هذه البلاطات جميعاً نحو الجنوب ، فتمت هذه الزيادة الجنوبية فى سنة ٢٣٤ هـ . يقول الرازى : «وزاد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم فى المسجد الجامع بقرطبة أول الزائدين فيه من خلفاء بنى مروان الزيادة الأولى الظاهرة من قبلته للداخل إليه ، البارزة من بين البنية الأولى التى ابتناها أبوجده عبد الرحمن بن معاوية الأمير الأول الداخل إلى الأندلس ، على أساس مختطى هذا المسجد المبارك من العرب الفاتحين للجزيرة ، فمد عبد الرحمن زيادته تلك طولا مع القبلة فى الفضاء البراح هنالك مع آخر هذا المسجد بباب المدينة الكبير القبلى المعروف اليوم بباب القنطرة . وقد كانت أبهاء المسجد الأقدم تسعة أبهاء ، زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانبيه ، فكملها أحد عشر بهواً ، استوسع به المسجد ، ورفه عن حاضريه ، واعتلى شأنه»[١] . ويقول أبو بكر عبد الله بن الحكم بن النظام : «... ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولا من الأبهاء التسعة ، وأنشأ حفافيها من ابتدائها شرقاً وغرباً بهوين زائدين عليها ، ممتدين معها ، فكمل عدد أبهاء المسجد أحد عشر بهواً ، صير سعة كل بهو من هذين البهوين تسعة أذرع ونصف»[٢] .

هذان النصان يزيلان الغموض الذى يكتنف تأريخ بناء جامع قرطبة فى عصرى الأميرين عبد الرحمن الداخل والأوسط[٣] ، ويشيران بوضوح إلى أن المسجد الأقدم الذى بناه الأمير الداخل كان يتألف من تسعة أبهاء ، زاد عليها الأوسط بهوين من كل جانبى بيت الصلاة سعة الواحد منها ٩½ ذراعاً ، وهى

---

(١) Lévi-Provençal: *Documents et notules: Les citations du Muqtabis d'Ibn Ḥayyān, dan la Revue Arabica*, t. I, fasc. I, Janvier 1945, p. 89.

(٢) Ibid. p. 90.

(٣) يرجع سبب هذا الغموض إلى تخبط المصادر العربية وخلطها بين الزيادة الأولى لعبد الرحمن الأوسط التى أتمها فى سنة ٢١٨ هـ وزيادته الثانية التى تمت فى سنة ٢٣٤ ، فابن عذارى يذكر هذين التاريخين للزيادة المنتظمة بالأرجل وطولها خمسون ذراعاً ، وعرضها ١٥٠ ذراعاً (راجع ابن عذارى ، جـ ٢ ص ١٢٦ ، جـ ٢ ص ٣٤٣) ، وابن خلدون يذكر أن الأمير عبد الرحمن الأوسط زاد فى جامع قرطبة رواقين (ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١٢٥) ، والمقرى يذكر نفس هذا النص (جـ ١ ص ٣٢٥)

الزيادة الأولى لهذا الأمير فى الجامع وتمت فى سنة ٢١٨ هـ ، وهو التاريخ الذى ذكره ابن عذارى ، وإن كان قد جعله للزيادة الثانية . أما الزيادة الثانية لنفس هذا الأمير فتمت فى جمادى الأولى سنة ٢٣٤ هـ ، وهى الزيادة الكبرى التى مدت فيها البلاطات الإحدى عشر جنوباً تجاه باب القنطرة . وتشير النصوص الأخرى التى نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال إلى هذه الزيادة بجلاء ، والنص الأول منها للحسن بن مفرج ، جاء فيه ما يلى : «أمر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بالزيادة فى الجامع بقرطبة ، فزيدت طولا ما بين الأرجل الضخام الصخرية الماثلة فى صدره ، الظاهرة لمن دخل إليه فيما بينها إلى آخر المسجد فى منتهى المحراب»(١) . والنص الثانى لمعاوية بن هشام القرشى الشبنيسى ، ويؤرخ لنهاية الزيادة الثانية والصلاة فيها فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٣٤ هـ(٢) . والنص الثالث للرازى ، ويؤرخ أيضاً الفراغ من هذه الزيادة فى جمادى الأولى سنة ٢٣٤ هـ(٣) . والنص لابن النظام ، وورد فيه ما يلى : «كثر الناس بقرطبة أيام الأمير عبد الرحمن ابن الحكم المطمئنة ، وانتابوها من كل أوب وجهة حتى تضايق عنهم مسجد جامعها ، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة ، وقهرهم سلطانهم الأمير عبد الرحمن عليه لأخذه برأي مالك فى ألا تفرق بمصر واحد صلاة الجمعة ، وحسبهم على مسجدهم هذا وحده ، فكانوا يلقون من اقتحامه قدحاً ، فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه ، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته فى الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة ، فعمل بما رسمه حين الزيادة الثانية من بناء هذا المسجد الفاضل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن الحكم ، المحدودة من عند الأرجل الحجرية الضخام ، الماثلة اليوم فى وسط أبهاء المسجد إلى المحراب الأقدم الذى اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخرمة ، ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولا من موقف حد المسجد الأول إلى ناحية القبلة(٤)» .

(١) Lévi-Provençal: *Les citations du Muqtabis*, p. 90.
(٢) Ibid. p. 90.
(٣) Ibid. p. 91.
(٤) Ibid. pp. 91-92.

ولكن هذا الوضوح والدقة اللذين تمثلها هذه النصوص يتعارض مع نتائج الحفائر الأثرية التي أجراها المهندس الأثرى دون فيليث هرناندث فى أرضية المسجد ، والتي تثبت بصورة حاسمة اشتمال جامع عبد الرحمن الداخل على أحد عشر بلاطاً ، وترتب على ذلك أن أصبح هناك فريقان من الباحثين : فريق يستند إلى التحليل الأثرى فى البناء ، وهو تحليل لا تتفق نتائجه مع الأخبار التي وردت فى النصوص المكتشفة ، ويعتقد هذا الفريق أن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يحده من الغرب جدار الواجهة الحالية التى ينفتح فيها باب سان استبان ، ومن الشرق جدار مماثل ، وأن هذا المسجد كان يشتمل بيت الصلاة فيه على أحد عشر بلاطاً ، وفريق يستند إلى الوثائق التاريخية التى تنص صراحة وبصفة واضحة على أن المسجد الأول الذى بناه عبد الرحمن الداخل كان يتكون من تسعة بلاطات ، أضيف إليها أولا بلاطان جانبيان فى سنة ٢١٨ ، ثم زيدت هذه البلاطات جميعاً نحو القبلة فى سنة ٢٣٤ ﻫ فى إمارة عبد الرحمن الأوسط.

ويستعرض الأستاذ توريس بلباس الأسباب التى يرتكن عليها أصحاب الرأي الأول وعلى رأسهم الباحث الأثرى دون مانويل جومث مورينو ودون رافاييل كاستيخون ودون ليوبولدو توريس بلباس نفسه ، من واقع الحفريات التي أجراها دون فيليث هرناندث فى أرضية المسجد الأول ، والتى تتعارض نتائجها مع الوثائق التى كشفها الأستاذ ليفى بروفنسال وعلق عليها الأستاذ إيلى لامبير[(١)] ، ونجملها فيما يلى :

١ — إن زيادة بلاطين جانبين إلى الشرق والغرب من بيت صلاة المسجد الأول (الذى يشتمل على تسعة بلاطات) تقتضى هدم الجدارين الخارجيين اللذين يسدان المسجد من هذين الجانبين ، والمفروض أن يستغل بناة هذه الزيادة الجدارين القديمين ، فبدلا من هدمهما كان يقتضى الأمر فتح ثغرات فيهما لتشييد العقود ، وبذلك يوفرون جهداً ونفقة لا ضرورة لها بهدم هذين الجدارين .

---

(١) Lambert: *L'histoire de la grande Mosquée de Cordove aux VIII^e et IX^e sié-cles, dans Annales de I. E. O. U. A.*, t. II, 1936, pp. 165-179.

وكان من الطبيعى بعد القيام بحفريات أثرية تحت الصف الأخير من العقود فى هذا الجزء من جامع عبد الرحمن الداخل أن يعثر الباحثون على آثار لأسس الجدارين القديمين ، ولكن الأستاذ فيليث هرنانديث لم يعثر على أقل أثر لجدار مستمر ، وبدلا من ذلك تمكن من رؤية أسس مفردة للأعمدة التى تتوزع على امتداد البائكتين الجانبيتين . ومع ذلك فقد استطاع فى حالة مشابهة لهذه الحالة ، وهى قيام المنصور محمد بن أبى عامر بهدم الجدار الشرقى من المسجد ذى الأحد عشر بلاطاً عند زيادته له من الناحية الشرقية ، أن يعثر على آثار لأسس هذا الجدار المهدم ، بل وآثار باب من الأبواب التى هدمت فى هذا الجدار عند شروعه فى الزيادة فى بيت الصلاة .

٢ — بزيادة بلاطين جانبيين إلى المسجد الأول ليصبح مجموع عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً ، كان طبيعياً أن يوصل طرفا هذه الزيادة من ناحية القبلة بجدار المحراب وذلك بتكملة هذا الجدار من الشرق والغرب حتى يتصل بطرفى البلاطين المذكورين ، وكان طبيعياً أيضاً أن يتميز البناء فى هذه الزيادة بجدار المحراب من طرفيه عن نظام البناء القديم غير أنه لما رفع الأستاذ فيليث هرنانديث لوحات الرخام فى الموضع المطابق لإحدى هاتين الوصلتين فى الزاوية الجنوبية الشرقية من مسجد عبد الرحمن الداخل ذى البلاطات التسعة ، شاهد أساس الجدار القبلى يمتد شرقاً دون أن يبدو أى أثر لجدار متعامد على هذا الجدار فى نقطة الالتقاء المفترضة .

٣ — إن النقش الكتابى المسجل على الباب الغربى المعروف بباب سان استيبان ، على الرغم من أنه لا يشير بصفة خاصة إلى هذا الباب ، يؤكد أن هذا الباب أنشىء أو جدد فى سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . ولقد تبقت على جانبى هذا الباب آثار زخرفة نباتية متآكلة تكاد تتلاشى ، قد فعلت فيها الرطوبة وعوامل الطبيعة أثرها ، ويعتقد أن بوابة سنة ٢٤١ هـ قد أدمجت فى الجدار السابق أو حلت فيما يظهر محل أخرى هى صاحبة هذه الآثار الزخرفية المتآكلة . وزخارف البوابة الجديدة المحفورة حفراً مائلا ، والتى وصلت إلينا فى حالة ممتازة ، تختلف جوهرياً سواء من حيث حالتها أو من حيث أدائها الفنى عن الزخارف المتآكلة .

ولما كان هذا الجدار قد أقيم مع الزيادة الأولى للمسجد فى سنة ٢٠٦ [١] فلا يعقل أبداً أن تكون زخارفه قد محيت بعد مضى ٣٥ سنة فقط من تاريخ نقشها بحيث استلزم الأمر ترميمها بعد ذلك فى عصر الأمير محمد بينما يكون قد مضى على بناء عبد الرحمن الداخل للجامع ٦٩ عاماً [٢] .

٤ — أشار المؤرخون إلى أن الأمير هشام أقام ميضأة بشرق الجامع ، وقد تمكن دون فيليث هرناندث من الإهتداء إلى أسس الميضأة وأسس مراحيض فى أرضية المسجد لصق الجدار الشرقى [٣] للمسجد ذى الأحد عشر بلاطـاً . وقد أثبت الفحص الفنى الذى أجراه الأستاذ هرناندث أن هذا الجدار الشرقى أقيم قبل جدران الحوض الملاصق لهذا الجدار [٤] .

ثم يتساءل الأستاذ توريس بلباس فى أيها نثق : أفى الوثائق التاريخيـة الصريحة أم فى الشواهد المادية التى كشف عنها البحث الأثرى فى المسجد ؟ ثم يجيب عن ذلك بأنه لا يجب أن نثق ثقة عمياء فى الوثائق العربية التي تعرضت للنسخ المتكرر والتحريف ، كما أنه لا يجب الأخذ بالشواهد المادية فى البنـاء ما لم تكن مدعمة . بالشواهد التاريخية ، فإن الأبنية تتعرض عبر القرون لتغيرات عديدة ، فإذا افترضنا صحة جانب من جوانبها فإن تحليلها يدع مجـالا للتفسير الشخصى .

ولحل هذه المشكلة مؤقتاً اقترح الأستاذان كاستخون وجومث مورينو نظرية جديدة للتوفيق بين الحقائق التاريخية وبين الشواهد المادية فى البنـاء فرأيا أن عبد الرحمن الداخل أنشأ أحد عشر بلاطاً ، ولكنه فصل البلاطين المتطرفين عن

---

(١) ذكر الأستاذ توريس بلباس هذا التاريخ خطئاً ، وصحته سنة ٢١٨ ﻫ استناداً إلى ما ذكرته المصادر العربية .

(٢) Torres Balbás: *La portada de San Esteban,* al-Andalus, vol. XI, p. 133- Torres Balbás: *Arte hispanomusulmán hasta la caída del Califato de Córdoba,* p. 390.

(٣) Torres Balbás: *La Mezquita de Córdoba y Madinat al-Zahra,* p. 22.

(٤) Castejón: *La portada de San Esteban,* Boletín de la R. A. B. L. N. A. C. N.° 51, 1944, p. 505 - Torres Balbás: *Nuevos datos sobre la Mezquita de Córdoba,* al-Andalus, vol. VI. 1941, pp. 419-421.

بقية البلاطات وقصرها على صلاة النساء . وظل هذان البلاطان منعزلين عن بيت الصلاة ، لا تصلهما بالبلاطات الداخلية إلا نوافذ مشبكة ، مفتوحة فى الجدارين الفاصلين . ثم هدم الأمير عبد الرحمن الداخل الأوسط هذين الجدارين وبدلهما بصفين من العقود المماثلة لصفوف العقود الداخلية ، وبذلك أدمج هذين البلاطين فى بيت الصلاة القديم[١] . إلا أن هذه النظرية باعتراف الأستاذ كاستخون نفسه لا تقوم على أساس تاريخى سليم بل وتتعارض مع بعض الحقائق التاريخية[٢] . فإن نص ابن النظام يشير بوضوح تام إلى بلاطين متطرفين موازيين للبلاطات التسع الأخرى فى المسجد القديم سعة كل منهما ٩½ ذراعاً ، يضاف إلى ذلك أن النصوص العربية تؤكد أن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذى أقام سقائف النساء فى جوف المسجد . وهناك حقيقة تاريخية ثالثة ، وهي أن الأمير عبد الرحمن الأوسط هو الذى فتح فى السورين الشرقى والغربى للمسجد بابين[٣] بالقرب من القبلة القديمة بعد أن أضاف إلى المسجد البلاطين الجانبين ، الغربى منهما هو باب الوزراء المعروف بباب سان استيبان ، والشرقى هو البـاب المقابل له فى الجدار الشرقى ، وعلى هذا الأسس يكون باب سان استيبان من عمل عبد الرحمن الأوسط ، وليس من عمـل عبد الرحمن الداخل . كذلك تتعارض نظرية التوفيق مع بعض الحقائق الفنية ، إذ كيف نفسر تماثل المساند (الكوابيل) المحدبة التى تتميز بها زيادة عبد الرحمن الأوسط الكبرى مع مساند البلاطين المتطرفين ؟ كل ذلك يجعلنا نرفض نظرية التوفيق أو نظرية الحل الوسط ، وما زلنا نرجح كفة النصوص التـاريخية التى اكتشفها الأستاذ ليفى بروفنسال ونشرها ، لدقتها وصراحتها ، ولأنها حلت لنـا مشكلة الاختلاف بين المساند المحدبة فى البلاطين المتطرفين من مسجد عبد الرحمن الداخل وبين مساند بقيـة

---

(١) Castejón: *La portada*, p. 505 - Gómez Moreno: *Ars Hispaniae*, t. III, p. 56.

(٢) Castejón: *Op. cit.*, p. 505.

(٣) يقول ابن النظام فى ذلك « وفتح فى هذين البهوين المزيدين من كلتى جنبتى البنية القديمة بأواخرهما ممـا يقرب من القبلة بابين بسوز الشرق والغرب كملت أبواب الجامع بها سبعة أبواب » .
(*Les citations d'al-Muqtabis*, pp. 91-92).

العقود فى هذا المسجد . وتماثـل المساند المحدبة فى البلاطين المذكورين نظائرها فى الزيادة الكبرى الثـانية التى قام بها عبد الرحمن الأوسط فى سنة ٢٣٤ هـ.

أما تعارض هذه النصوص مع ما أسفر عنه البحث الأثرى فليس عقبـة حقيقية تمنع من قبولنا لهذه النصوص كما سأوضحه فى مناقشتى التالية للأدلة التى قدمهـا الأستاذ توريس بلباس لإثبات أن جامع عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على ١١ بلاطـاً . وليس معنى هذا أننى لا اعترف بالشواهد الأثرية فى أرضية المسجد ، وكل ما فى الأمر أننى أسعى من وراء هذه المناقشة إلى التوفيق بين الشواهد الأثرية والنصوص على نحو يرضى الطرفين ، ولا يبخس من قيمة كل من الشواهد الأثرية والنصوص التاريخية . ومناقشتى التالية تدور حول الأسباب التى ارتكن عليها أصحاب الرأى المتمسك بالشواهد الأثرية تبريراً لعدم الأخذ بالنصوص التاريخية .

فإذا بحثنا فى موضوع الآثار الدالة على أسس جدارى المسجد الأول الشرقى والغربى ، وجدنا أن عدم العثور على آثار لأسس تحدد الجدارين المتطرفين للمسجد الذى بناه عبد الرحمن الداخل فى نطاق البلاطات التسع ، لا يعني عدم وجودها أصلا ، فقد يكون هذان الجداران قد بنيا من مادة ضعيفة لم تترك وراءها أى أثر بعد أن قام عبد الرحمن الأوسط بتوسعة بيت الصلاة شرقاً وغرباً عن طريق هدمها ، ويغلب على الظن أن الأمير المذكور كان لديه الوقت الكافى لإزالة هذين الجدارين من أساسها ، وإقامة أسس جديدة لصفى الأعمدة اللذين حلا محلها . وإذا كان هذا الأمير لم يفعل ذلك بالنسبة لجدار القبلة فى مسجد عبد الرحمن الداخل عند شروعه فى زيادته الكبرى من الجهة القبلية فى سنة ٢٣٤ هـ ، فلأن أسس هذا الجدار لا تعرقل قط صفوف العقود التي تتعامد على الدعائم المتخلفة من هذا الجدار ، بينما كان وجود مثل هذه الدعائم فى الجانبين الشرقى والغربى من المسجد لا يجعل من الممكن انطلاق عقود بمثل عدد العقود فى البلاطات الموازية لهذين الجانبين ، لأن الدعائم تشغل جزءاً لا بأس به من الفراغ الذى تمتد فيه العقود امتدادها العمودى على جدار القبلة ، كما حدث بعد ذلك

فى زيادة المنصور . ثم إن وجود مثل هذه الدعائم بالقرب من الجدارين الجانبيين للمسجد يشوه التناسق العام للمسجد من الناحية الجمالية ، بعكس الدعائم المتخلفة من الجدار الشرقى بعد زيادة المنصور فى الجامع من جهته الشرقية . وإذا كان المنصور قد حرص على فتح ثغرات واسعة فى الجدار الشرقى المذكور حتى يتصل بيت الصلاة القديم بزيادته ، فذلك لأنه كان ينوى إضافة ثمان بلاطات بطول المسجد ، وهى إضافة كبيرة تهىء المجال للجدار الخارجى أن يكون بمنأى عن الجدار القديم المفتح . زد على ذلك أنه كان يحرص على توكيد عظم الأعمال الإنشائية التي قام بها فى داخل مسطح بيت الصلاة ، أى أنه كان يسعى إلى توضيح زيادته وإبرازها بالنسبة لبيت الصلاة حتى تكون زيادته شبه مستقلة عن بقية المسجد ، على النحو الذى فعله الحكم المستنصر إذ فصل بين زيادته الحكمية وبين بيت الصلاة القديم عن طريق الدعائم المتخلفة من السور القبلى القديم ، وعن طريق القبتين اللتين تتوجان مدخل هذه الزيادة ومنتهاها على البلاط الأوسط المتجه إلى المحراب . ويمكننا أن نضيف إلى هذين العاملين عاملا ثالثاً وهو أنه كان يعمل على سرعة إتمام بناء زيادته ، فلم يكن يهمه إزالة هذا الجدار من أساسه ، ثم إنه ليس من الضرورى أن يكون رأى المنصور مماثلا لرأى عبد الرحمن الأوسط من حيث الاحتفاظ بأجزاء من الجدار الشرقى فى زيادة المنصور أو إزالة آثار الجدارين الشرقى والغربى من أرضية الجامع فى زيادة عبد الرحمن الأوسط الأولى ، فكل منهما كان يتصرف وفقاً للنظام التخطيطى للجامع من جهة أو حسب ما يقتضيه التناسق الجمالى من جهة ثانية أو وفقاً لظروفه ووقته من جهة ثالثة .

وقد يكون الجداران المتطرفان الشرقى والغربى من مسجد عبد الرحمن الداخل قائمين على أساس جدارى الكنيسة ، ففضل الأمير عبد الرحمن الأوسط أن يزيل أصولها ، ويمحى آثارها لأسباب جمالية ، فأبدلها بصفى الأعمدة ، وهذا يفسر السبب فى أن أبحاث الأستاذ هرناندث لم تصل إلى تحديد تخطيط الكنيسة . وإذا كان عبد الرحمن الأوسط قد أزال أساس هذين الجدارين للأسباب التى ذكرنا احتمال حدوثها ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يفرض أسلوبه

الفنى على زيادته للبلاطين الجانبيين وعلى زيادته القبلية ، وذلك بتزيين المساند فيها بحنيات محدبة من نفس الطابع فى كلتا الزيادتين .

أما النقش الكتابى المسجل على باب سان استيبان فلا ينص على أن أعمال التجديد التى قام بها الأمير محمد تقتصر على هذه الواجهة أو على هذا الباب ، وإنما هو نقش تذكارى لأعمال الترميم التى قام بها هذا الأمير إتقاناً لما رآه يستحق الترميم فى هذا المسجد ، وهو ما يعبر عنه النص الذى نطالع فيه : [بسمله . . . أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه ، رجاء ثواب الله عليـــه وذخره به ، فتم ذلك . . . فى سنة إحـــدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه . مسرور و (نصر فتياه)] [١] .

وكان الأستاذ لامبير قد لاحظ اختلاف المساند الملفوفة التى تحمل الدعائم القائمة على العمد فى مسجد عبد الرحمن الداخل عن نظائرها فى البلاطين المتطرفين ، وفى الزيادة القبلية التى قام بها عبد الرحمن الأوسط ، فوجد أن المساند الأولى لها طابع متوسط بين المساند فى زيادتى عبد الرحمن الأوسط والمساند الملفوفة فى زيادة الحكم المستنصر . فساند زيادتى عبد الرحمن الأوسط ملساء بسيطة لا تحمل إلا بروزاً واحداً يقرب من ربع الدائرة ، أما المساند الملفوفة فى بلاطات مسجد عبد الرحمن الداخل « فهى أكثر تطوراً وإتقاناً ، وأكثر تعقيداً ، وهى وإن كانت قديمة إلا أنهـا أحدث من النوع الذى استخدم فى زيادة عبد الرحمن الأوسط . فبدلا من ربع الدائرة البسيط نجد أن جوانب هذه المساند تشتمل على ثلاثة أو أربعة لفائف متصلة ، الأمر الذى يجعل هذه المساند (يقصد المساند فى زيادة عبد الرحمن الأوسط) أقدم المساند الملفوفة فى المسجد الجامع بقرطبة . وقد أعيد استخدام هذا النوع من المساند فى القرن العاشر الميلادى فى زيادتى

(١) Lévi-Provençal: *Inscriptions arabes d'Espagne,* t. I, Paris, 1931 - Combe, Sauvaget et Wiet: *Répertoire chronologique d'Epigraphie arabe,* Le Caire, 1931, Inscription N.° 373, p. 289.

الحكم المستنصر والمنصور مع بعض التطور فى التفاصيل نتيجة إضافة شوكة وسطى أو شوكتين تقسم لفائف المسند رأسياً من وجهه »[(١)] .

كذلك تحمل مساند مسجد عبد الرحمن الداخل (الأقدم) لفائف زخرفية أكثر بساطة من مساند الواجهة المطلة على صحن الجامع ، ومساند الشرفة البارزة أو الظلة المطلة على باب سان استيبان من أعلاه ، إذ أن لفائف مسجد عبد الرحمن الداخل لا تحمل الشوكة الوسطى التي نراها فى لفائف الظلة أو لفائف واجهة الصحن ، ولما كانت هذه اللفائف الأخيرة من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر[(٢)] ، وكانت من جملة الأعمال التى تمت فى سنة ٣٤٦ هـ[(٣)] ، فإننى أعتقد أنه من الممكن أن نحدد تاريخ إنشاء المساند الملفوفة بمسجد عبد الرحمن الداخل بالفترة الواقعة بين عام ٢٣٨ هـ وهو تاريخ وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط وعام ٣٠٠ هـ الذي يسجل اعتلاء عبد الرحمن الناصر دست الإمارة بقرطبة . وأعتقد أيضاً أن كوابيل المسجد القديم (وأعنى به مسجد عبد الرحمن الداخل) كانت ملساء ومجردة من اللفائف ، فلما كانت أيام الأمير محمد أضيفت إليها اللفائف التى نشاهدها اليوم . ومن المعروف أن الأمير محمد هو الذى أتم البقية اليسيرة الباقية من أعمال أبيه عبد الرحمن الأوسط فى المسجد سنة ٢٤١ هـ ، ويؤكد ذلك الوثائق الآتية :

١ — أن الكتابة المنقوشة حول طبلة عقد باب سان استيبان تشير إلى قيام الأمير محمد ببنيان « ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه » ، والمقصود بذلك ما رأى الأمير ضرورة ترميمه فى هذا المسجد .

٢ — ذكر ابن القوطية فى « تاريخ افتتاح الأندلس » أن الأمير « عبد الرحمن (الأوسط) أمر بالزيادة فى جامع قرطبة ، فتمت فى أيامه إلا يسيراً أتمه

---

(١) Lambert: *De quelques incertitudes*, pp. 182-183.

(٢) ذكر ابن عذارى أن عبد الرحمن الناصر « بنى صومعة المسجد ، وعدل بنيان المسجد ، وبنى وجه البلاطات الإحدى عشر » . (ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٣٤٤) .

(٣) Lévi-Provençal: *Inscriptions arabes d'Espagne*, p. 8-9.

الأمير محمد »[١] . وفى موضع آخر يقول : « وكان عبد الرحمن بن الحكم قد بنى الزيادة فى الجامع على ما تقدم ذكره وبقيت بقية أتمها الأمير محمد »[٢] .

٣ — تحدد النصوص التى اكتشفها الأستاذ ليفى بروفنسال أعمال الأمير محمد تحديداً واضحاً ، وأول هذه النصوص نص لأبى بكر بن القوطية جاء فيه : « مات الأمير عبد الرحمن (الأوسط) وقد بقى عليـــه فى هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة ، أتمهـا الأمير ابنه محمد الوالى مكانه ، فاستوفيت الكمال فى أيامه »[٣] . ويلى هذا النص نص لأبي بكر عبد الله بن الحكم بن النظام الكاتب الاخبارى ، نطالع فيه : « وهلك الأمير عبد الرحمن (الأوسط) قبل أن تتم زخرفة هذه الزيادة وتنميقها ، فأتم ذلك ولده الأمير محمد ، وبلغه الغاية »[٤] . والنص الثـــالث لأحمد بن محمد الرازى ، ونقرأ فيه : « اعتنى (الأمير محمد) لأول خـــلافته بتتميم ما كان بقى من زيادة والده الأمير عبد الرحمن المنسوبة إليه بالمسجد الجامع العتيق بمدينة قرطبة ، فاستوعب طروزه ، وأوثق أبوابه ، وأقام المقصورة فيه ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء »[٥] . وأهم النصوص التى اكتشفها الأستـاذ ليفى بروفنسال والتى تؤيد وجهة نظرى فى هذا الشأن ، ما ذكره الحسن بن مفرج بقوله : « كان الذى عمله الأمير محمد بالمسجد الجامع بعد استكماله لما كان قد بقى من العمل فى زيادة الأمير عبد الرحمن فيه ، المشهورة فى وسطه ، أن جدد[٦] البنية الأولى القديمة عمل جدهم الداخل عبد الرحمن بن معاوية التى تنتهى من أوله المبتدىء من صحنه ، المنتهى إلى الأرجل الصخرية الضخام الماثلة فى وسطه ، التى منها ابتدأ والده بزيادته ، فمدها إلى القبلة ، وكانت اهترمت فيها أماكن لطول الأمد ، اضطر جميعها إلى الإصلاح والمرمة ، فأزاح عللها ، وبالغ فى إتقانها ، فأعادها إلى أول نشأتها »[٧] .

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٢ (٢) نفس المصدر ، ص ٧٣ ، ٧٤
(٣) *Les citations d'al-Muqtabis*, p. 90.
(٤) Ibid. p. 92.
(٥) Ibid.
(٦) وردت فى النص المنشور « جرد » وصحتها جدد .
(٧) *Les citations d'al-Muqtabis*, p. 92.

٤ — يذكر ابن عذارى فى حوادث سنة ٢٤١ هـ أن الأمير محمد جدد طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه[١] . وفى موضع آخر يقول : « ثم زاد الأمير محمد ابن عبد الرحمن أن أمر بإتقان طرر الجامع وتنميق نقوشه[٢] » . والمقصود بكلمة طرر (مفردها طرة) الإطـــار المستطيل الذى يحيط بدائرة العقد[٣] ، فإذا فسرنا هذه اللفظة بذلك المعنى ، نجد أن الأطر المستطيلة فى الجامع لا توجد إلا حول عقود أبواب المسجد الخارجية وهو أمر لا نظن أن الكاتب الأخبارى كان يقصده لأن الطرر أو الأطر المستطيلة لا تعدو أن تكون أفاريز بارزة تحيط بالشيء المـراد إبرازه ، وهى عادة لا تزدان بزخارف أو نقوش ، وأغلب الظن أن المؤلف كان يقصد « طرز » المسجد بوضع نقطة على الراء ، ثم أغفلت النقطة عند النسخ مرة ووضعت مرة أخرى فى عبارة مماثلة ، على النحو الذى أوضحناه عندما أتينا بالعبارتين . ومن المعروف أن الطرز تعنى الأفاريز الزخرفية أو النقوش التى تزين قسما من واجهة بنـاء أو شريطاً من الزخرفة يدور بالثوب ، وهو معنى يتناسب مع ما ورد فى نصوص المقتبس لابن حيان التى كشفها الأستاذ ليفى بروفنسال ، كما يتفق نفس المعنى مع ما ورد فى نصى ابن عذارى ، ونرجح أن المؤلف كان يقصد استخدام لفظة « طرز » بدلا من لفظة « طرر » التى لا تنطبق فى المسجد إلا على عقود أبوابه ، ثم إن الرازى يستخدم لفظة ممـاثلة للفظة « طرز » إذ يذكر أن الأمير محمد « استوعب طروزه وأوثق أبوابه » ، والمقصود بطروزه هنا نقوش المسجد . وعلى هذا الأساس نعتقد اعتقاداً أكيداً بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط توفى قبل أن يفرغ من إتمـام زخارف الزيادتين اللتين قام بها ، ونعنى بهذه الزخارف ، تنميق واجهة الأبواب التى فتحت فيهما ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٣

(٣) استخدم ابن جبير لفظة « طرة » فى مناسبات كثيرة ، راجع الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٨٧ ، ٩٥ ، ١٥٢ . وراجع أيضاً تفسير لفظة طرة فيما يلى :

1 Dozy: *Supplements aux dictionnaires arabes,* article «Turra» طرة

2 Lévi-Provençal: *Inscriptions arabes d'Espagne.*

3 Marçais (G.): *L'architecture musulmane d'Occident,* p. 138.

وعلى الأخص باب الوزراء[١] الغربى ، وهو الباب المعروف بسان استيبان ، والأبواب الأخرى الشارعة إلى المسجد شرقاً وغرباً[٢] ، ويبدو أن الأمير كان ينوى أيضاً ترميم ما وهى من زخارف المسجد القديم الذى بناه عبد الرحمن الداخل . ولكن لم يتهيأ له القيام بهذا المشروع ، فتولى ابنه محمد تنفيذه ، وبلغ به الغاية فى الإتقان . وأول ما فعله الأمير محمد هو إتقان نقوش الأبواب وتنميقها بالزخارف ، ومن بين هذه الأعمال أيضاً قيامه بتزيين باب الوزراء (سان استيبان) بزخارف نباتية على كل من جانبيه ، ثم تزيين مساند المسجد القديم ، الذى كان قد أقامه عبد الرحمن الداخل ، باللفائف التى أشرنا إليها ، وهو أمر يفسر وجود لفائف أسلوبها الزخرفى أكثر تطوراً وأحدث فى مسجد عبد الرحمن الداخل من نظائرها فى مساند زيادتى عبد الرحمن الأوسط ، ومن طابع لا يصل فى التطور بعد إلى الأسلوب الزخرفى فى لفائف مساند كل من واجهة الصحن والظلة التى تعلو باب سان استيبان ، وقد سجل الأمير محمد أعماله على طبلة عقد هذا الباب ، الذى كان يعتبر وقتئذ أهم أبواب الجامع .

وينقلنا هذا الحديث إلى معاودة مناقشتنا للحجج التى أوردها الأستاذ توريس بلباس ، ومن بينها وجود أسلوبين مختلفين للزخرفة فى واجهة باب سان استيبان ، الأمر الذى حمل الأثرى المذكور إلى الاعتقاد بأن الزخارف القديمة المتآكلة فى هذه الواجهة هى نفس زخارف هذه البوابة فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وأن الزخارف التى تبدو فى حالة جيدة هى ما استحدثت بعد ذلك فى عهد الأمير محمد . والواقع أن النقش الكتابى المسجل على طبلة عقد باب سان استيبان لا يشير إلى هذه البوابة بالذات ، وإنما يشير إلى جميع أعمال الأمير محمد فى الجامع ، ومن جملتها إتقان هذه البوابة ، وتؤيده النصوص التاريخية

---

(١) ابن حيان ، كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب أنطونية ملشور ، باريس ١٩٣٧ ص ٣٦

(٢) بلغ عدد أبواب الجامع زمن عبد الرحمن الأوسط سبعة : أربعة فى بيت الصلاة من الشرق والغرب ، منها باب الوزراء والباب الواقع إلى يساره من جهة القبلة ، ثم البابان الآخران اللذان يقابلانها فى الجدار الشرقى ، ثم بابان يشرعان إلى صحن الجامع شرقاً وغرباً ، وأخيراً باب واحد يتوسط الواجهة الشمالية للمسجد .

التى تذكر هذه الأعمال ، والتى نستدل منهـا على أنه استوعب زخارف الجامع وأوثق أبوابه ، وأزال ما وهى من « البنية الأولى القديمة عمل جدهم الداخل عبد الرحمن بن معاوية . . . وكانت قد اهترمت فيها أماكن لطول الأمد اضطر جميعها إلى الإصلاح والمرمة فأزاح عللها ، وبالغ فى إتقانها » حتى عادت إلى حالتها التى كانت عليها . وإلى هذا الأمير نسب أيضاً تزويد مساند العقود فى مسجد عبد الرحمن الداخل باللفائف الزخرفية . ومع ذلك كله ، فإن الأمير محمد لم يكن آخر من رمم واجهة باب سان استيبان التى يتخذها الأستاذ توريس بالباس ومن يحذو حذوه دليلا على أن جدار هذا المسجد من عمل الأمير عبد الرحمن الداخل ، فلقد تعرضت هذه البوابة — فيما يظهر — لإصلاح آخر فى زمن الأمير المنذر ، فابن عذارى يذكر أنه قام بتجديد السقـــاية وإصلاح السقائف[١] ، والمقرى يذكر نقلا عن ابن سعيد أن الأمير عبد الرحمن الأوسط هلك « قبل أن يتم الزخرفة ، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ، ثم رم المنذر ما وهى منه »[٢] . ويبدو أن زخارف هذه البوابة تآكلت بعد ذلك بفعل الرياح وعوامل الرطوبة ، وساعد على ذلك طبيعة الحجر نفسه ، فهو حجر رملى رخو سريع التأثر بعوامل الطبيعة[٣] ، مما دعا الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى القيام بتعديل هذه الزخارف[٤] . وأرجح أنه أزال الأحجار القديمة المتآكلة فى سنجات العقد وطبلته وطرته ، وكساها من جديد بلوحات حجرية صلبة نوعاً ما نقشها بزخارف جديدة من أسلوب الزخرفة النباتية فى عصره ، وهى زخارف تقرب كثيراً من زخارف مدينة الزهراء وعقد المحراب بجامع طركونة وسنجات

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٩٧

(٣) يشير الأستاذ رافاييل كاستخون إلى أثر العوامل الطبيعية فى تآكل الزخارف المنقوشة فى الحجر حتى فى قطع الحجـارة التى وضعها المهندس ريكاردو بلاسكث بوسكو فى مكان القطع المتآكلة ، على الرغم من مضى ما يقرب من خمسة وخمسين عاماً منذ قيامه بأعمال الترميم

Castejón: *La portada de San Esteban*, p. 492.

(٤) ذكر ابن عذارى أنه قام بتعديل المسجد ، وبنيان الوجه للبلاطات والصومعة (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٤) .

العقود فى الأبواب الخارجية للجامع فى زيادة الحكم المستنصر . وأرجح أيضاً أنه أقام بأعلى هذه البوابة شرفة بارزة أو ظلة تقوم على مساند ملفوفة تشبه نظائرها فى واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن التى ثبت أنها من بنيانه كذلك[١]. ولا تختلف مساند بوابة سان استيبان عن مساند واجهة بيت الصلاة إلا فى بساطتها ، ولكنها تتشابه معها فى تعدد لفائفها ، وفى وجود الشوكة الوسطى .

ومما لا شك فيه أن السبب فى اختلاف حالة الحفظ والصون بين الزخارف التى تزين سنجات عقد بوابة سان استيبان وبين الزخارف الجانبية أو العليا ، إنما يرجع إلى أعمال الترميم المتكررة التى أجريت فى هذه البوابة فى العصر الإسلامي ، بل وفى العصر الحديث[٢] أيضاً الأمر الذى دعا بعض مؤرخى الفن إلى اعتبار عقد البوابة بسنجاته الحجرية المزينة بالزخارف وطرره التى تحيط به عملا حديثاً من نفس الأسلوب الخلافى[٣] . ويجارى الأستاذ كاستخون هؤلاء المؤرخين فيما ذهبوا إليه ، ومع ذلك فإنه ينسب الزخارف المنقوشة على جانبى العقد إلى الأمير محمد ، ويذكر أن جامع قرطبة لم يعرف قبل هذا الأمير زخارف

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٤ . وقد سجل الخليفة عبد الرحمن الناصر بنيانه لهذه الواجهة فى لوحة مثبتة فى الجدار الواقع على يمين باب بيت الصلاة المسمى بباب لاس بالماس نطالع فيها النص التالى : [بسملة . . . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاه ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر ، فتح ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر عمل سعيد بن أيوب] .

(Lévi-Provençal: *Inscriptions arabes d'Espagne*, p. 8-9).

(٢) يرى الأستاذ كاستخون أنها رممت فى سنة ١٨٦٠ على يدى المهندس المعمارى رافاييل لوكى R. Luque (Castejón: *Op. cit.*, p. 496.) . ويذكر الأستاذ إنريكى روميرو دى توريس أن بوابة سان استيبان أصلحت في القرن السابع عشر وبالذات فى سنة ١٦٠٢ على يدى مرتين روث أردونيث مدير أعمال كنيسة قرطبة ، كما يذكر أيضاً أن هذه البوابة نفسها أصلحت قبل ذلك فى عصر الملكين الكاثوليكيين .

Romero de Torres: *Restauraciones desconocidas en la mezquita aljama de Córdoba*, Boletín de la Real Academia de Ciencias de Córdoba, N.° 62, pp. 207-212.

(٣) Terrasse: *L'art Hispano-Mauresque*, p. 67.

التوريق المنقوشة (١) . ويعتقد الأستاذ توريس بلباس أن الزخارف المتآكلة ، سواء على جانبي عقد البوابة أو بأعلى طرة هذا العقد ، هي من بقـايا واجهة مسجد عبد الرحمن الداخـل (٢) ثم اضطر الأمير محمد إلى ترميمها عندما ساءت حالتها لقدم العهد بها . ولكننا نعتقد أن هذه الزخارف القديمة البالية التي تزين جانبي بوابة سان استيبان أقيمت في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط (لا في عصر عبد الرحمن الداخل) لتشابهها الشديد مع زخارف تيجان الأعمدة الموجودة في زيادته بالجامع ومماثلتها لزخارف قوقعة زخرفية وقطع أسفر الكشف الأثري عنها في الجانب الشرقي من زيادة عبد الرحمن الأوسط ، لعلها تخلفت من الباب الشرقي الذي تهدم ، عند شروع المنصور في إجراء زيادته (٣) . وتتميز زخارف هذه القطع الزخرفية بأنها نباتية قوامها ورقة الأكنتس ، التي نشاهدها تسود في زخارف بوابة سان استيبان . ونعتقد أيضاً أن الأمير محمد قام بعد وفاة أبيه ، بإتمام زخارف هذه البوابة ، وأرجح أنه أقام العقود الصغيرة الثلاثة التي تعلو طرة عقد الباب ، وتربيعات الزخارف المحصورة بينها ، وهي زخارف تقوم أساساً على ورقة الأكنتس المتفرعة إلى ثلاثة فصوص والمشقوقة في الوسط . وتمـاثل هذه الزخارف نظائرها المتبقية في جامع تطيلة (٤) وتمثل أسلوباً وسطاً بين الزخارف القديمة ، وهي زخارف جانبي العقد ، وبين الزخارف التي تكسو السنجات الحجرية للعقد نفسه ، وهي أحدث كما يتجلى ذلك من حالتها الجيدة .

ونختتم مناقشتنا لمشكلات تأريخ بنيان الجامع بدراسة الحجة الأخيرة التي أوردها الأستاذ توريس بلباس لإثبات أن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل

---

(١) Castejón: *La portada de San Esteban*, pp. 492-498.

(٢) Torres Balbás: *La Mezquita de Córdoba y Madinat al-Zahra*, p. 40.

(٣) Castejón: *Op. cit.*, p. 506. ولكن الأستاذ جومث مورينو يرى أن هذه القوقعة من بقايا محراب المسجد الأول الذي بناه عبد الرحمن الداخل *Ars Hispaniae*, p. 42 وإن كنت لا أؤيده فيما ذهب إليه لأن عبد الرحمن الأوسط نقل محراب حنش الصنعاني إلى مسجده الجديد على حمر خشب .

(٤) Gómez Moreno: *La Mezquita mayor de Tudela*, Revista Príncipe Viana, N.º 18, Pamplona, 1945.

على ١١ بلاطاً ، وهي العثور على آثار حوض الوضوء فى أرضية المسجد لصق الجدار الشرقى من بيت الصلاة القديم الذى كان يشتمل على ١١ بلاطاً ، وهى آثار ينسبها مؤرخو الفن الأندلسى إلى الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . غير أن وجود هذه الآثار لا يعتبر دليلا لتدعيم نظرية الأستاذين جومث مورينو وفيلث هرناندث . حقيقة لقد أقام هشام ميضأة بشرقى الجامع ، ولكن ليس من الضرورى أن تكون هذه الميضأة ملاصقة لجدار المسجد ذى البلاطات الإحدى عشرة ، فقد تكون قد أقيمت على مسافة تبعد عن المسجد ذى البلاطات التسعة بما يعادل اتساع بلاطة زائدة من جهته الشرقية ، وأن الأمير عبد الرحمن الأوسط حرص عند شروعه فى إضافة البلاطين الجانبين على ألا يزيد عرض كل منهما عن أكثر من هذه المسافة حتى لا يهدم بناء الميضأة ، فجعل سعة البلاطين المذكورين أقل من سعة البلاطات الأخرى . وإذا كان هذا الحل الذى قدمناه لمشكلة الميضأة افتراضياً ، فهناك من الأدلة التاريخية ما يؤيدنا فيما ذهبنا إليه ، ونستند فى ذلك على نص لابن بشكوال يؤكد أن هذه الميضأة كانت مقامة حقاً بشرقى الجامع ولكن فى فنائه . فقد ذكر ابن بشكوال أن « الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع الذى يستقى لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد : الشرقى والغربى . منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء[١] » . وعلى أساس هذا النص تكون ميضأة هشام التى رممت فى عهد المنذر[٢] فى صحن الجامع من جهته الشرقية . أما الآثار التى اكتشفها الأستاذ فيلث هرناندث فتكون فى هذه الحالة لإحدى الميضأتين اللتين أقامها الحكم المستنصر فى الجهة الشرقية من المسجد الذى كان يشتمل فى عصره على ١١ بلاطاً ، ولعل إحداها كانت تقوم لصق الجدار الشرقى من حد الجدار الخارجى لبيت الصلاة الذى أصبح يضم إحدى عشر بلاطاً بعد زيادة عبد الرحمن الأوسط الأولى ، ثم هدمت هذه

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٩٢ — ٩٣

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣

الميضأة عند شروع المنصور بن أبى عامر فى زيادته الشرقية فى الجامع بطوله ، فاضطر إلى هدمها وفتح ثغرات واسعة فى الجدار الشرقى لبيت الصلاة للإفادة من الدعائم المختلفة فى توفير الأعمدة والوقت والجهد ، فلم يتهيأ له الوقت لانتزاع آثارها واستئصال أسس الأجزاء المهدمة من الجدار الشرقى القديم .

* * *

وبعد فعلى الرغم من مناقشتى الطويلة السابقة لتفنيد نظرية الأثريين جومث مورينو وفيليث هرناندث وتوريس بلباس ، وتأييد ما ورد فى الوثائق التاريخية مع محاولة ربطها بالشواهد الأثرية ، فإن الحل النهائى لمشكلة تأريخ بنيان جامع قرطبة ما يزال يحتاج إلى حفريات جديدة تجرى فى أرضية بيت الصلاة وفى الصحن خاصة من الجانب الغربى ، وإلى أن تجرى هذه الحفريات ليس علينا سوى أن نثق بالنصوص التاريخية التى أثبتت حتى هذه اللحظة صحة ما جاء فيها .

د. السيد عبد العزيز سالم

رواية مصرية عن المغرب والأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى

كان معظم الرحل المسلمين فى العصور الوسطى ، يتجهون من المغرب إلى المشرق ، وكان القلائل منهم يتخذون الاتجاه العكسى ، أعنى من المشرق إلى المغرب . والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن الرحلة كانت تنطوى فى معظم الأحيان ، على قصد السفر إلى الحجاز ، وقضاء فريضة الحج . وكانت هذه الأمنية المقدسة ، تجتذب الرحل دائماً إلى تحقيقها فى بداية كل رحلة . وكان وصف الحجاز ، والأماكن المقدسة ، ورسوم الحج ، وانفعالاته الروحية ، تتصدر دائماً ما يكتبه كل رحالة عن رحلته .

ومن الرحل المسلمين القلائل الذين تجولوا فى الغرب الإسلامي ، وتركوا لنا عن رحلاتهم مذكرات هامة شائقة فى نفس الوقت ، العالم الرحالة عبد الباسط ابن خليل المصرى . وترجع أهمية مذكرات هذا الرحالة إلى أمرين ، الأول الوقت الذى قام فيه برحلته إلى المغرب والأندلس ، وهو النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ، الموافق للنصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى فترة دقيقة حرجة فى تاريخ الممالك المغربية ، وتاريخ مملكة غرناطة ، والثانى هو ندرة المراجع والوثائق الإسلامية التى تتعلق بهذه الفترة .

وعبد الباسط بن خليل شخصية غريبة ، متعددة النواحى ، فهو عالم وفقيه ، وهو أديب وشاعر ، وهو راوية ومؤرخ ، وهو طبيب بارع ، وهو أخيراً تاجر جم النشاط ، واسع الثراء .

وهو زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفى الملَطى ثم القاهرى، ولد بمدينة ملَطْية الواقعة شمال مدينة الرُّها فى أقصى شمالى الشام، وفى أقصى جنوب مملكة الروم، وكانت يومئذ من مدن الحدود المصرية، فى شهر رجب سنة ٨٤٤ هـ (ديسمبر سنة ١٤٤٠ م) فى أسرة من علية القوم. وكان أبوه خليل بن شاهين الصفوى الأشرفى، ويكني غرس الدين، من أكابر رجال الدولة المملوكية المصرية، وقد تقلد عدة مناصب إدارية هامة فى ظل السلطان الملك الأشرف بارسباي (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) فتولى نيابة الكَرَك، ونيابة القدس، ونيابة ملطية، وأتابكية حلب، ونيابة الإسكندرية، ثم عُين فى أواخر حياته أميراً للحج. وكان حنفى المذهب، ومن عشاق العلم والادب، درس على عدة من علماء عصره، وأجازه عدة، منهم الحافظ ابن حجر. وكان وفقاً لقول ابن اياس «من أعيان الرؤساء، وكان نادرة بين أولاد النـاس» وتوفى فى سنة ٨٧٣ هـ عن مائة عام(١).

ونشأ ولده عبد الباسط بملطية، ثم انتقل حَدثا إلى دمشق، وقرأ بها القرآن، ثم حفظ منظومة النسفى، ودرس على جماعة من أعيـان علمائها، مثل الشيخ قوام الدين، والشيخ حميد الدين النعمانى، والمولى علاء الدين قاضى العسكر وغيرهم. ثم قدم إلى القاهرة فاستقر بها، ودرس العربية والمعانى والبيان على النجم الغزى ولازمه، ودرس الكلام والمنطق والحكمة، على شرف الدين يونس الرومي نزيل الشيخونية، وأخذ كثيراً عن محيي الدين الكافيجى أعظم أساتذة العصر، ودرس عليه التفسير والأصول والعربية، وأجاز له عدة من علماء العصر، ثم رحل فى شبابه إلى المغرب والأندلس حسبما نفصل بعد، ودرس هنالك النحو والكلام والطب، وبلغ الغاية فى الطب، وكانت دراسته

(١) ابن اياس فى بدائع الزهور (بولاق) ج ٢ ص ١٠٤

من أقصى أمانيه « وبرع فى كثير من الفنون ، وشارك فى الفضائل ، وألف ونظم ونثر وكان إنساناً حسناً »[(١)] .

وهذا كل ما عثرنا عليه من التفاصيل ، خاصاً بنشأة عبد الباسط وحياته الأولى ، بيد أنه سوف يتاح لنا أن نقف على تفاصيل كثيرة أخرى ، مما يقدمه لنا خلال روايته عن رحلته الكبيرة فى المغرب والأندلس ، ثم إنه سوف يتاح لنا أن نعرف بعض تفاصيل أخرى عنه فى أواخر حياته ، مما يقدمه إلينا تلميذه المؤرخ ابن اياس .

ولم يدون لنا عبد الباسط رحلته هذه فى كتاب مستقل . وإنما وردت تفاصيلها ، وما تضمنته من الحوادث والتعليقات ، متتابعة على طريقة الحوليات فى مؤلفه التاريخى ، الذى وضعه عن تاريخ عصره . ذلك لأن عبد الباسط كان مؤرخاً ، حسبما يصفه المعاصرون[(٢)] . وحسبما يدلى بذلك تراثه التاريخى . وهذا المؤلف الذى تركه لنا عبد الباسط عن حوادث عصره هو كتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » . ولم يصلنا هذا المؤلف الكبير كاملا مع الأسف ، ولكن وصلنا منه جزءان أو قطعتان مخطوطتان ، تحفظان بمكتبة الفاتيكان الرسولية ، وتحمل أولاهما العنوان السابق ، وقد كتب تحته « تأليف الشيخ العلامة عبد الباسط بن خليل الحنفى » وكتب تحت الاسم « وهو بخطه رحمه الله تعالى » . وتتكون من ٢٥٩ لوحة كبيرة وتحمل رقم Borg. 728 . وتتناول هذه القطعة سير الحوادث بمصر والشام وغيرهما من البلاد الإسلامية ، منذ عهد السلطان الملك الأشرف برسباي ، وهو حامى

(١) عثرنا على الترجمة الوحيدة لعبد الباسط فى كتاب « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » للمولى تقى الدين عبد القادر التميمى الغزى الحنفى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥ تاريخ حليم ، ج ١ ص ٢٥٣

(٢) ابن اياس ، ج ٣ ص ٦٣

والده خليل ، الذى لمع فى ظله ، وتبوأ أعظم المناصب ، من سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) حتى سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) مرتبة وفق السنين والأيام ، وقد كتبت بخط نسخ ردىء ، وفى نهايتها أنها كتبت فى سنة ٨٩٠ هـ ، فى حياة مؤلفها . وتحمل القطعة الثانية رقم .Borg 729 . وتحتوى على ستة وستين لوحة ، ولكنها تحمل عنواناً آخر هذا نصه « هذا كتاب التواريخ الملوكية فى الحوادث الزمانية . تأليف الإمام عبد الباسط المشهور بالحنفى المؤرخ » . ويقول المؤلف فى ديباجة هذا الجزء ، أنه ابتدأ فيه من سنة مولده ، وذكر غرر المتجددات اليوميه ، وأشهر الحوادث العصرية ، ونبذا من تراجم ووفيات جماعة من موجودى الأعيان ، وأنه اعتمد فيه على تاريخ العينى وتاريخ ابن حجر (١) . وتتناول هذه القطعة تاريخ الحوادث من سنة ٨٦٥ هـ إلى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٠ — ١٤٦٩ م) وفيها ما يدل على أنها كتبت سنة ٨٨٨ هـ فى حياة المؤلف أيضاً (٢) .

— ٢ —

يقص علينا عبد الباسط حوادث رحلته تباعاً فى كتابه « الروض الباسم » فى سنيها وأشهرها وأيامها المتعاقبة ، جنباً إلى جنب مع حوادث التاريخ العامة . وقد استغرقت هذه الرحلة خمسة أعوام كاملة ، لأنه بدأها فى شوال سنة ٨٦٦ هـ ، واختتمها فى شوال سنة ٨٧١ هـ (يوليه ١٤٦٢ — مايو ١٤٦٧ م) . ومما يلفت النظر أن عبد الباسط اختار لرحلته مسرحاً غير المسرح التقليدى ،

---

(١) تاريخ العينى هو كتاب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » . وتاريخ ابن حجر هو « إنباء الغمر بأنباء العمر » .

(٢) رأينا فيما تقدم أن القطعة الأولى تحمل ما يدل على أنها كتبت بخط المؤلف . أما القطعة الثانية فقد كتب على صفحة الغلاف بها أنها « بخط الشيخ جمال الدين المعروف بابن الشحنة » .

الذى اعتاد الرحالة المصريون فى العصور الوسطى أن يتجهوا إليه ، وهو البلاد المشرقية ، الشام والعراق والحجاز ، يتجهون إليه للدرس وقضاء فريضة الحج . ونحن نعرف أن عبد الباسط . ولد ونشأ فى الطرف الشمالى لهذه المنطقة المشرقية ، وعرف الشام صبياً ودرس به ، فلم تكن تتجه طلعته إلى هذا الصقع . ومن ثم فإن عبد الباسط تطلع إلى آفاق أخرى ، واختار الغرب الإسلامى مسرحاً لرحلته ، وانحصرت هذه الرحلة بين ثغور المغرب الأوسط ، وبلاد الأندلس أو مملكة غرناطة .

وكان عبد الباسط حينما اعتزم الرحلة ، فتى فى الثانية والعشرين من عمره . وكانت تحفزه إلى التجوال بواعث كثيرة ، منها طلعة الكشف والمشاهدة ، وشغف الدرس ، ولا سيا دراسة الطب فى بلاد المغرب ، ورؤية بلاد الأندلس ، التى كانت تشتهر فى مصر بجمال معالمها ، ورفيع حضارتها ، وأخيراً رغبة الكسب والمتاجرة ، لان عبد الباسط كان رجلا ثرياً ، وكان يحترف التجارة ، وكانت ثغور البحر المتوسط الجنوبية كلها مراكز وأسواق رائجة لبضائع المشرق .

وخرج عبد الباسط من ثغر الاسكندرية فى شهر شوال سنة ٨٦٦ ﻫ (يوليه سنة ١٤٦٢ م) ، واستقل سفينة من سفن البنادقة ، وكان البنادقة والجنويون ، يسيطرون يومئذ بسفنهم العديدة على حركة السفر والتجارة ، بين ثغور البحر المتوسط شماله وجنوبه ، وشرقه وغربه . وكان مع عبد الباسط جاريته وحظيته أم الفتح شكرباي ، وبعض عبيده ، ومقادير من البضائع والأقمشة المصرية . وعرجت السفينة على جزيرة رودس ، ثم أبحرت صوب ثغر تونس ، فوصلت إليه فى الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة . وأقام عبد الباسط فى تونس بضعة أشهر ، ثم غادرها فى آخر شعبان من العام التالى (٨٦٧ ﻫ) على مركب بندقية ، قامت من جزيرة جربة ، متجهة إلى طرابلس . وأقام عبد الباسط بضعة أشهر فى طرابلس ، ثم غادرها فى أوائل جمادى الثانية (سنة ٨٦٨) متجهاً

إلى قابس . ثم قصد إلى مدينة القيرُوان وبقى بها حتى العشرين من شوال . ورحل بعدئذ بطريق البر إلى تونس ، ثم قسنطينة ، ثم بجاية فجزائر مزغونة (الجزائر) فتلمسان ، فوصل إليها فى آخر ذى القعدة سنة ٨٦٨ هـ (أوائل أغسطس سنة ١٤٦٥ م) .

هذا هو الشق الأول من رحلة عبد الباسط . ويفيض عبد الباسط فى وصف تنقلاته وإقاماته فى مختلف البلاد التى سبق ذكرها ، وهو لا يعنى فقط بتعريفنا بما يتعلق بشخصه وأحواله ، ولكنه يعنى بالأخص بوصف الأحداث العامة التى تصل إلى علمه ، ووصف أكابر التجار والعلماء الذين يلتقى بهم ، وأمراء وحكام البلاد التى ينزل فيها ، وهو يترجم من يرى أنه يستحق الترجمة من العلماء والأدباء . وممن عنى بالتعريف عنهم خلال هذه الجولة ، كبير تجار تونس يومئذ ، وهو أندلسى غرناطى يدعى الحاج أبو القاسم البنيولى الغرناطى ، ومحمد الخير المالقى أحد أدباء بلاده ، وكبير علماء القيروان يومئذ ، محمد بن محمد البلوى الشهير بابن البكوش ، وقد درس عليه وأفاد من علمه . ثم هو يحدثنا عن أمير تونس يومئذ ، وهو المتوكل على الله عثمان الحفصى ، ويقول لنا أنه كان يدبر الاستيلاء على حاضرة تلمسان ، وقد سار إليها بالفعل لمهاجمتها ، ولكنه لم يوفق إلى تنفيذ مشروعه ، ثم عاد بقواته إلى تونس . ويفصل لنا عبد الباسط هذه الحوادث ، ثم يصف لنا ما أقيم بتونس وقت وجوده بها من مختلف الحفلات والمناسبات .

ومن الواضح مما يسرده لنا عبد الباسط فى رحلته خلال هذه الفترة ، وخلال تنقلاته بين مختلف الثغور والمدن الافريقية ، أنه كان دائم الاشتغال بالاعمال التجارية ، وأنه كان يتاجر فى مختلف البضائع المشرقية والمغربية ، وأنه فوق ذلك كان يتجر فى العبيد والرقيق من الأسرى ، ويقص علينا أنه خلال إقامته بتونس ، زار سفينة من سفن الأسرى ، وافتدى من الفرنج أسيراً

تركياً كان معهم ، وشجعه على افتدائه ، وإلحاقه بخدمته ، انه كان يعرف التركية . وعبد الباسط ينتمى فى الواقع إلى أسرة يرجع أصلها إلى بلاد الروم ، وهو يعرف التركية بمولده ومنشئه . ومما يقصه علينا أيضاً أنه خلال إقامته بتونس ، ولدت له جاريته شكرباي طفلة سماها عائشة ، وتوفيت فى نفس يوم مولدها ، وأنه شعر لذلك بحزن عميق (ربيع الآخر سنة ٨٦٧ هـ) .

وفى تلمسان يستقر عبد الباسط بضعة أشهر ، ويتجول فى ربوعها الجميلة ، ويتصل بعلمائها ، ويصف لنا لقاءاته معهم ، ثم يزور ربض العُبَّاد القريب منها ، ويزور به مقام « سيدى أبو مدين » ولىّ تلمسان الشهير ، وهو العلامة الأندلسى الاشبيلى شعيب بن حسين الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، ثم يحدثنا عن أمير تلمسان محمد بن أبى ثابت سليل بنى عبد الواد ، ويصف لنا استعداده لتحصين حاضرته ، اتقاء لإغارة أبى عثمان أمير تونس عليها ، ويذكر لنا أنه كان يسعى لدى سلطان غرناطة ، أبى الحسن على بن الأحمر ليمده ببعض رماته . ويقول لنا إنه مدح صاحب تلمسان بقصيدة كان قد أعدمها « لما تصوّفتُ وغسلتها فى جملة ما غسلت من شعرى ، والكثير من أوراقى وتعاليقى ، التى ندمت بعد ذلك على كثير منها ، لما كان بها من الفوائد » . ومن هذه القصيدة هذان البيتان .

أعنى المليك الذى شاعت مكارمه من آل زيان أقيال أماجدُ
هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومن يقل سوى ذا فذاك القول مردود

ورزق عبد الباسط خلال إقامته بتلمسان من جاريته شكرباي أم الفتح بابنة أخرى ، سماها عائشه أيضاً (ذو الحجة ٨٦٨ هـ) وعاشت بضعة أعوام ثم توفيت بالقاهرة فى وباء سنة ٨٧٣ هـ .

وغادر عبد الباسط تلمسان إلى وهران فى ربيع الثانى سنة ٦٩ ، وأقام بها بضعة أشهر ، ثم عاد إلى تلمسان فى شهر رمضان ، ونزل هذه المرة مع ذويه فى دار خصه بها صديقه وزير تلمسان عبد الرحمن بن النجار وكان يعيش فى سعة ورغد ، يلازمه خدمه ومملوكه . وبعد أن قام فى تلمسان أشهراً أخرى ، غادرها ثانية إلى وهران فى رجب سنة ٨٧٠ هـ . وكان يومئذ فى حالة ضعف من جرح أصابه ، فأشار عليه بعض الاصدقاء أن يبقى مستجماً حتى يسترد عافيته . وكان عبد الباسط يترقب الفرص يومئذ ليزور المغرب ، ولكن المغرب كان يضطرم يومئذ بالثورة ، وكانت مملكة فاس المرينية ، تلفظ يومئذ أنفاسها الأخيرة .

وهنا يحدثنا عبد الباسط عن أخبار المغرب حسبما كانت ترد إليه ، وقد رأيت أن عبد الباسط يعنى بتدوين الحوادث العامة ، ويسرد أخبار الممالك التى يتجول فيها ، تحفزه إلى ذلك روح المؤرخ الحق . وهو هنا يحدثنا عن أخبار مملكة فاس ، ويقص علينا قصة الصراع الأخير بين بنى مرين ملوك فاس ، وبين بنى وطّاس المتوثبين عليهم . وخلاصة ذلك أن السلطان عبد الحق المرينى ملك فاس ، ندب لخدمته يهودياً يدعى هارون بن بطش ، وعينه نائباً لوزارته ، وفوض إليه شئونه ، فاستأثر اليهودى بكل سلطة ، وصار وكأنه صاحب الأمر ، وكثر تسلط اليهود على المسلمين ، وأضحوا يخرجون فى مظاهر فخمة ، ويتطاولون على أهـل فاس ، ويسومونهم أسوأ معاملة . فعندئذ نهض خطيب جامع القرويين أبو عبد الله محمد ، يعرض بهذه الحـال ، ويجوب شوارع فاس ، داعيـاً إلى الجهاد ضد اليهود ، وانقاذ المسلمين من عسفهم . فاجتمع إليه أهل فاس ، وأفتى العلماء بوجوب قتل اليهود ، وهجم المسلمون على حي اليهود ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة ، ثم قتلوا السلطان عبد الحق المرينى (٢٢ رمضان ٦٩) وأقاموا مكانه فى الملك شريفاً يدعى محمد بن عمران . وانتهز بنو وطّاس خصوم بنى مرين ووزراؤهم السابقون تلك الفرصة ، فحشدوا جموعهم ، وهاجموا

الشريف أبا عمران ، وأخرجوه من فاس ، واستولوا على ملك بنى مرين ، بعد أن استقر أكثر من قرنين ، وتولى كبيرهم مولاى الشيخ المُلك ، وقامت بذلك فى المغرب دولة جديدة هى دولة بنى وطاس . ولا يفوت عبد الباسط بعد أن يقص علينا أخبار هذا الانقلاب ، أن يقول لنا ، أن النصارى انتهزوا تلك الفرصة ، فاستولوا على كثير من ثغور المغرب ، والنصارى هنا هم الاسبان والبرتغاليون .

وفى خلال هذه الاقامة الطويلة فى تلمسان ، وفى ثغرها وهران ، يتصل عبد الباسط بكثير من الشخصيات ، من أعيان وعلماء وأدباء ، ويترجم لنا من يستحق الترجمة منهم كعادته .

وكان عبد الباسط فى نفس الوقت يتتبع أخبار الأندلس . وكانت تلمسان يومئذ ، بعد اضطراب مملكة فاس وانهيارها ، هى أكثر حواضر المغرب اتصالا بالأندلس ، وأشدهم اهتماماً بأخبارها . وكان من الواضح يومئذ أن الأندلس تجوز ظروفاً عصيبة ، وأن الخطر يحدق بها من كل صوب ، ومن ثم فقد كانت أخبارها تثير طلعة كل مفكر مسلم ، ولا سيما من كان كعبد الباسط يرقب الأحداث بلهفة المؤرخ المضطرم ، والواقع أن الشذور القليلة التى يخصصها عبد الباسط خلال رحلته لحوادث الأندلس ، تقدم إلينا أنفس وأوثق مادة يمكن الاعتماد عليها فى استجلاء حوادث الأندلس فى تلك الفترة ، التى تقل فيها المراجع والوثائق ، ويدخل فيها تاريخ مملكة غرناطة فى مرحلة من الاضطراب والغموض .

وتلقى عبد الباسط أثناء إقامته بتلمسان ، طائفة من أخطر أنباء الأندلس ، أولها ما وقع من الخلاف بين السلطان المستعين بالله سعد بن أبى عبد الله محمد ابن يوسف المعروف بابن الأحمر ملك غرناطة ، وبين ولده الأمير على أبى الحسن وذلك فى المحرم سنة ٨٦٩ هـ (سبتمبر ١٤٦٤ م) وما انتهى إليه هذا الخلاف من انتزاع أبى الحسن العرش من أبيه ، والتجاء سعد إلى مالقة . وقد كان

بنو سراج أو بنو السّراج هم الذين حرضوا أبى الحسن على الثورة . وثانيها ما حدث من استيلاء القشتاليين ، على جبل الفتح أو جبل طارق وذلك فى شهر صفر سنة ٨٦٩ ه [(١)] . ويصف عبد الباسط هنا القشتاليين بأنهم الفرنج البرتقال . وهو ينوه بفداحة هذا الخطب ، لما كان لجبل طارق من أهمية دفاعية بالغة ، ويصف لنا وقع الحادث العميق ، ثم يرجع ذلك إلى ما كان يضطرم بين مسلمى الأندلس من الفتن والقلاقل .

وتأتى الأخبار بعد ذلك بأن ملك قشتالة ، أبدى نيته فى غزو الأندلس ، وكان لذلك أثره فى عقد الصلح بين السلطان أبى الحسن ، وبين أبيه السلطان سعد ، ثم حدث بعد ذلك أن وقعت الفتنة فى قشتالة ، وشغلت حيناً عن محاولة الاعتداء على الأندلس ، ثم عُقد الصلح بعد ذلك بين قشتالة والأندلس لمدة خمس سنين . ويقدم لنا عبد الباسط فيما بعد ترجمة موجزة للسلطان سعد ، وترجمة أخرى لولده السلطان أبى الحسن ، ويفصل لنا ما حدث من توثبه على أبيه وانتزاع العرش منه ، ثم ما حدث بينه وبين أخيه يوسف أبى الحجاج من صراع على الملك . ويعود بعد ذلك فيسرد لنا ما وقع بين أبى الحسن وابنه أبى عبد الله محمد ، بعد الثمانين ، على نحو « ما فعله هو مع والده سعد الماضى ، وهو غالب عادتهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد ، بل والأجداد » وانتهى الابن بالتغلب على أبيه وانتزاع الملك منه . ويمضى عبد الباسط فى سرد ما وقع بعد ذلك لأبى عبد الله من هزيمة فادحة فى أوائل سنة ٨٨٨ ه (ويوردها عبد الباسط سنة ٨٨٧ ه) (١٤٨٣ م) على يد القشتاليين فى موقعة اللسانه الشهيرة ، ووقوعه أسيراً فى يد ملك قشتالة ، وما ترتب على ذلك من عودة

(١) وهنا تحريف فى التاريخ لأن جبل طارق سقط فى يد القشتاليين قبل ذلك بنحو عام ونصف فى سنة ١٤٦٢ م (٨٦٧ ه) .

أبى الحسن إلى الملك ثم يعدد لنا خلال أبى الحسن ومآثره ، ويقول لنا إنه نظم فى مديحه قصيدة هذا أولها .

إلى أبى الحسن الأعناق تنخضع   وعند شدته الأملاك تتضع
ومن شجاعته الأبطال قد فرقوا   ومنه أفئدة الأعداء تنخلع

اعتزم عبد الباسط بن خليل ، بعد أن تعذرت عليه الرحلة إلى المغرب بسبب ما كان يضطرم به من القلاقل والفتن ، أن يجوز إلى الأندلس ، وكانت معه عندئذ مقادير من البضائع التى جمعها من تلمسان ليبيعها هنالك . فخرج من وهران فى منتصف شهر ربيع الثانى سنة ٨٧٠ هـ (٥ ديسمبر سنة ١٤٦٥) على مركب كبيرة من مراكب الجنويين « مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان ووهران وغيرهم » . وترك جاريته وأم ولده شكرباى بمنزل العالم الزاهد سيدى أبى عبد الله محمد بن القصار ، خطيب جامع البيطار بوهران . وكانت قد توثقت بينهما أواصر المودة ، ورعى ابن القصار أسرة عبد الباسط خير رعاية ، ولما عاد عبد الباسط إلى القاهرة ، مر عليه ابن القصار فى طريقه إلى الحج ، فى سنة ٨٧٤ هـ ، فأكرمه غاية الإكرام ، وخصه فى كتابه بترجمة رقيقة فى وفيات سنة ٨٧٦ هـ .

ووصل عبد الباسط إلى ثغر مالقة فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الثانى ، واجتمع بها بكبير علماء الأندلس سيدى أبو العباس أحمد الشريف التلمسانى قاضى الجماعة بغرناطة وسمع عليه ، واجتمع كذلك بقاضى مالقة وخطيبها سيدى أبو عبد الله محمد بن القرعة ، وحضر الكثير من دروسه ولا سيما العربية ، وقد كان يومئذ من أساطينها ، وكان يومئذ ما يزال شاباً فى نحو الأربعين ، وقد ذاعت شهرته العلمية فيما بعد حتى وصلت إلى القاهرة .

وزار عبد الباسط قصبة مالقة ، وهى دار الإمارة ، وكانت لا تزال يومئذ فى ذروة ضخامتها ومنعتها وعظمتها ، ويقول لنا عبد الباسط انها « قصبة هائلة وبها الآثار العظيمة ، وهى من تجديد السلطان الكبير أبى الحسن المرينى ملك المغرب » ثم يصف لنا ازيار المـاء التى كانت بها وهى « بديعة الصنعة غريبة النقوش من العجائب والنوادر » ، وهى من الخزف المالقى الذى ما تزال تشتهر بصنعه مالقة حتى اليوم .

ومكث عبد الباسط فى مالقة سبعة عشر يوماً ، ثم غادرها على البغال متجهاً إلى حاضرة غرناطة ، فمر بطريقة بمدينة بلش ، ودهش لمـا شاهده بها من كثرة الخـيرات والفواكه ولا سيما « التين اليابس والزيت واللوز » ، وكانت تشحن منهـا فوق المراكب مقادير هائلة إلى البلاد النائية . ثم اتجه شمالا إلى مدينة الحامة ، « وهى من أعظم البلاد نزهة وحسناً » وهو يصف لنا عيون الماء (الحمامات) المعدنية التى كانت بها ، والتى اشتق اسمها منها ، وقد اغتسل بها ، ثم غادرها فى اليوم التالى قاصداً إلى غرناطة ، فوصل إليها فى صباح اليوم التالى ، فى يوم من أواخر جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ ، وقد بهرته روعتها وحسنها الفائق ، وهو يصف لنا غرناطـة وأهلها فى تلك الفقرة الحماسية البليغة .

« ورأيت غرناطة فإذا بها بلدة نزهة عظيمة من أعظم بلاد الأندلس ، وهى قاعدة ملك الاسلام بالأندلس ، وتخت المملكة بها غريبة الوضع ، حسنة الأبنية ، ظريفة أنيقة ، بديعة الوضع ، بهـــا سائر أرباب الصنائع . وهى كدمشق الشام ، وبها المياه الجارية والبساتين والأجنة والكروم . وهى مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء ، وأرباب الفنون والكمالات ، وبها بقايا الناس والآثار العظيمة ، والأمكنة الزاهية . وهى فى الجفن كقدر دمشق الشام ، لكنهـا محشوة حشواً ، وأهلها من خيار أهل البلاد ، وأشجع الناس . يقال

أن بها الف رامٍ بقوس الجرخ ، ومن كانت العامة من أهل غرناطة معه من ملوك ، راج أمره ، ومن شاءوا سلطنته أبقوه ، ومن أبَوْه أخرجوه ، وبها الطرائق والاداب الغريبة ، وبالجملة فهى من أعظم بلاد الغرب وأنزهها .

واتصل عبد الباسط كعادته بعلماء غرناطة ، وفى مقدمتهم قاضى الجماعة بها العلامة أبو عبد الله محمد بن منظور ، وهو يشيد بخلاله وعدالته فى قضائه ، ويقول لنا إنه سمع الكثير من فوائده ، وانه كان ما يزال حياً حينما كتب عنه فى رحلته وذلك فى سنة ٨٨٨ هـ .

وتجول عبد الباسط فى ربوع غرناطة ، وشاهد بساتينها وأجنتها وكرومها النضرة ، وزار حيها الشعبى الشهير ، ربض البيازين ، وجامعة الأعظم . ثم زار مدينة الحمراء — دار الملك — وهو يصف لنا روعة صروحها ، واناقة مبانيها ، وموقعها تجاه سرج غرناطة من ناحية ، وعلى ضفة نهر حدرُّه من ناحية أخرى ، ويفيض فى وصف أسوارها وأبراجها ومبانيها وزخارفها العجيبة من الجص ، وهو ما « يعجز الإنسان عن شرحه ووصفه » ثم يختتم وصفه بهذه العبارة « وبالجملة فإن غرناطة هذه وحمراءها من أجمل مدن الإسلام وأظرفها لولا قرب الكفار من تلك الديار ، وأخذهم غالب تلك الأقطار الأندلسية ، والكثير من مدن الاسلام التى كانت مشهورة ، لا سيا فى أيام بنى أمية بها مثل مرسية وبلنسية وقرطبة وطليطلة وسرقسطة وجيان ، والحصون المنيعة كشاطبة ونحو ذلك من بلاد كثيرة كانت للاسلام ، صارت للفرنج الآن ، فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكانت أهم مناسبة أتيحت لعبد الباسط خلال إقامته القصيرة بغرناطة زيارته لملك غرناطة ، السلطان أبى الحسن على بن سعد النصرى ، وقد تمت هذه الزيارة بقصر الحمراء تلبية لدعوة السلطان نفسه ، وذلك فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٧٠هـ ، ويقول لنا عبد الباسط إن السلطان

سأله عن أخبار صاحب تلمسان مع صاحب تونس ، ثم عن أخبار الشام وأحواله ، وعن القاهرة وملكها . وقد أجاب عبد الباسط عن كل ما سأل ، وهو متعجب من أحاديثه . ولقى عبد الباسط من السلطان كل إكرام ورعاية ، وأصدر له السلطان بخطه ظهيراً « بألا يؤخذ منه شيء مما يلزم التجار من المغارم » وهو دليل واضح على ما كان يعنى به عبد الباسط خلال رحلته من الأعمال التجارية .

وأنفق عبد الباسط فى زيارة غرناطة زهاء شهر ، ثم غادرها فى أواخر جمادى الثانية سنة ٨٧٠ هـ ، إلى مالقة ، وقد تماثل إلى الشفاء ، مما كان قد أصابه من جرح أوقعه به بعض خصومه . ثم غادر مالقة إلى وهران فوصل إليها فى اليوم الرابع من رجب من نفس العام . وأقام بوهران عدة أشهر ، استجماماً واستكمالا لصحته ، من رجب سنة ٨٧٠ هـ إلى ربيع الأول سنة ٨٧١ هـ (فبراير إلى اكتوبر سنة ١٤٦٦ م) .

وكانت قد وردت فى أواخر شهر صفر إلى مياه وهران مركب جنوية كبيرة « برسم الاتجار فى الجوخ ، وكانت وردت من المحيط من بلاد افلندا ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط ، وتجهز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر بها إلى جهة بلاد تونس » ثم يقول عبد الباسط « وتجهزت أنا أيضاً لذلك ، وعزمت على العودة لهذه البلاد » .

واستقل عبد الباسط تلك المركب الجنوية مع أسرته ، أم ولده شكرباى ، وابنته الطفلة عائشة وعبيده ، وأثقاله ، فوصل إلى تونس فى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٧١ هـ ، ولم يرد أن يقيم بتونس فغادرها على نفس السفينة بعد وقفة قصيرة ووصل إلى طرابلس ، حيث أقام بها مدى شهرين . ثم غادرها بطريق البر عبر برقه ، فوصل إلى الاسكندرية فى الخامس من شهر شوال سنة ٨٧١ هـ (١٠ مايو سنة ١٤٦٧ م) .

— ٣ —

أنفق عبد الباسط بن خليل فى رحلته إلى المغرب والأندلس زهاء خمسة أعوام ، ودون لنا أخبار رحلته تباعاً فى حوليات كتابه « الروض الباسم » وهو لم يرد خلال ما يدونه لنا من هذه الأخبار ، أن يقتصر على سرد تنقلاته وأعماله واتصالاته الشخصية ، بل أراد فوق ذلك أن يكون مؤرخاً ، يسجل لنا الأحداث الهامة التى تقع فى البلاد التى يتجول فيها . وقد رأينا أن ما يسرده لنا عبد الباسط من أخبار الممالك المغربية ، وأخبار مملكة غرناطة ، يوافق فترة دقيقة حاسمة فى تاريخ هذه الممالك . ففى تونس وتلمسان ، كانت الفتن تضطرم بلا انقطاع ، وفى المغرب الأقصى كان يحدث فى مصاير مملكة فاس تحول خطير وانهيار ملك قديم مؤثل هو ملك بنى مرين ، لتقوم بها دولة جديدة هى دولة بنى وطاس . وفى الأندلس كانت الفتن تضطرم بين أمراء الأسرة النصرية ، ومصاير غرناطة تهتز فى كفة القدر . وقد دون لنا عبد الباسط هذه الأحداث كلها بدقة الراوية المحقق ، وقدم لنا بالأخص عن مملكة غرناطة ، وعن أسرتها النصرية الحاكمة ، صورة قوية واضحة ، هى الوحيدة من نوعها عن تلك الفترة الأخيرة — بداية النهاية — من تاريخ مملكة غرناطة .

ولم يقف عبد الباسط عند تدوين الأحداث العامة ، ولكنه عنى فى نفس الوقت بذكر من لقيه فى كل قطر من الأعيان والعلماء والأدباء ، وترجم لنا فى حولياته ، الكثير من شخصيات المغرب والأندلس فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وعنى كذلك بوصف الناس وأحوالهم ، وظروف معيشتهم ، ووصف لنا المظاهر الاجتماعية والعمرانية فى كل قطر ، وهو فى ذلك مرهف الشعور والحس ، قوى الملاحظة ، صادق النظرات . وعلى الجملة فإن هذه الرحلة التى دونها لنا عبد الباسط ، والتى تملأ فى حوليات

كتابه « الروض الباسم » نحو ثمانين صفحة ، تعتبر وثيقة من أنفس الوثائق التى وصلتنا عن أحداث المغرب والأندلس وأحوالهما فى القرن التاسع الهجرى .

ولما عاد عبد الباسط إلى وطنه مصر ، بعد غيبة دامت خمسة أعوام ، كان لا يزال فتى فى عنفوانه لم يبلغ الثلاثين بعد . فاستقر بالقاهرة واشتغل بالدرس والتجارة . وهنالك ما يدل على أنه كان يشغل فى مجتمع القاهرة العلمى والأدبى مكانة ملحوظة ، فان تلميذه المؤرخ ابن اياس يصفه لنا بشيخه ، ويذكره فى مناسبات عديدة ، ويورد لنا الكثير من شعره ، وهو على الأغلب شعر متوسط ، لا يبلغ مرتبة الاجادة ، ولكنه قوى التعبير ، وأجوده فى الرثاء . ومن جهة أخرى فقد أورد لنا صاحب الكواكب السائرة قصيدة عبد الباسط فى رثاء شيخه الحافظ العلامة جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) وإليك بعض ما جاء فيها :

مات جلال الدين غيث الورى ... مجتهد العصر أمام الوجود
وحافظ السنة مهدى الهدى ... ومرشد الضال بنفع يعود
فيا عيون انهملى بعده ... ويا قلوب انفطرى بالوقود
واظلمى يا دنيا إذا حق ذا ... بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفى ... وحق للقائم فيك القعود
وحق للناس بأن يحزنوا ... بل حق أن كلٌّ بنفس يجود

وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما ذكره لنا عبد الباسط من أنه ترك نظم الشعر البهج الزهى ، ومال إلى النظم فى شئون التصوف ، والمناسبات الرصينة ، ومن ثم فإن أغلب ما وصلنا من شعره كان فى الرثاء .

وأكثر عبد الباسط منذ عودته ، من الاشتغال بالعلم ، وسمع على معظم أساتذة عصره ، واشتهر بالأخص ببراعته فى علم الطب ، وما حصله من الفوائد

بدراسته على أشياخ المغرب ، ثم عمد إلى كتابة تاريخ عصره . والظاهر أن أخبار رحلته كانت أكبر حافز له على طرق هذا الميدان . فكتب أولا كتابه « الروض الباسم » الذي سبق ذكره ووصفه ، وضمنه حوادث رحلته . ثم وضع كتابا آخر بعنوان « نيل الأمل فى ذيل الدول » وهو ذيل على تاريخ الحافظ الذهبى « دول الإسلام » وهو الذى ينتهى فيه إلى سنة ٧٤٤ هـ ، وقد أكمله عبد الباسط فى الجزء الأول من كتابه حتى سنة ٨٣٩ هـ[١] . وهو يذكر فى هذا الكتاب بعض حوادث المغرب فى سنى رحلته الخمس من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨٧١ هـ .

وتوفى عبد الباسط بن خليل ، وفقاً لتلميذه ابن اياس[٢] فى شهر ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ (مايو ١٥١٤ م) بعد حياة حافلة فى نحو الخامسة والسبعين من عمره ، ويصفه ابن اياس بالمؤرخ وبأنه كان من أعيان الحنفية[٣] .

محمد عبد الله عنان

---

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب محفوظة بالمكتبة البودلية باكسفورد .

(٢) ابن اياس فى بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٣

(٣) رجعنا فى هذا البحث ، أولا إلى مخطوط كتاب «الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم» المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمى ٧٢٨ و ٧٢٩ .Borg . والى كتاب « الكواكب السائرة فى مناقب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٠٥٦ تاريخ) والى كتاب « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » للمولى تقى الدين بن عبد القادر التميمى الغزى (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٥ تاريخ حليم) ثم إلى ما نقله العلامة جورجيو دللا فيدا من رحلة عبد الباسط فى الأندلس من مخطوطه ونشره فى مجلة الأندلس الاسبانية مجتمعاً فى مقال عنوانه :

Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viagiattero egiziano (Al-Andalus Vol. I, 1933-Fasc. II).

ثم إلى كتاب العلامة الأستاذ روبير برنشفج :

Deux Recits de voyage inedits en Afrique du Nord au XV^{eme} Siècle (Dans Larose-Paris, 1939).

وقد نشر به ما كتبه عبد الباسط عن رحلته فى افريقية والمغرب مجتمعاً (ص ١٧ — ٦٨) ، ورجعنا أخيراً إلى تاريخ ابن اياس بدائع الزهور (بولاق) فى عدة مواضع من الجزئين الثانى والثالث .

العلم والعلماء فى دولة المماليك البحرية المصرية

لم يكتب بعد التاريخ العلمى للدولة المملوكية التى يطلق عليها دولة المماليك البحرية التى حكمت وادى النيل فيما بين عامى ١٢٥٠ و ١٣٨٢ م ، ويتناول هذا التأريخ مجال علوم الطب والكيمياء والفيزيقا والفلك والرياضيات والهندسة والعمارة والنبات والحيوان وغيرها .

كان لبغداد مكانتها السامية فى شتى العلوم والفنون على أيام الخلفاء العباسيين ، وكان لعلمائها القدح المعلى فى بناء الحضارة الإسلامية التى كان مركزها بغداد . فلما دمرها المغول فى عام ١٢٥٨ م ، كان من الطبيعى أن تحتل القاهرة مركز بغداد الحضارى ولا سيما فى أعقاب تهديد المغول دمشق وحلب والقدس . إذن ، فقد حملت القاهرة مشعل الحضارة الإسلامية حتى استتب الحكم للعثمانيين فى مصر (١٥١٧) . وكان عصر المماليك البحرية أزهى عصور تلك الحضارة الزاهرة بالرغم عن الحروب المتواصلة التى أسهمت فيها مصر ضد الصليبيين والمغول حتى وفاة تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر .

وليس معنى هذا ، أن مصر قبل أيام المماليك البحرية كانت مجردة من الحضارة ومنجزات العلماء العلميين ، فقد أخذت البلاد منذ أيام الفاطميين فى بناء حضارة إسلامية إلى جانب دعم سيادتها السياسية . ففى الطب مثلا ، لمع فى عصر الفواطم كثير من الأطباء المسلمين والنصارى واليهود ، فمنهم الطبيب أحمد بن محمد البلوى (ت ٩٩١ م) ، والطبيب محمد بن سعيد التميمى ، المقدسى المولد وكان فى مصر حتى عام ٩٨٠ م ، ومن كتبه «المرشد إلى جواهر الأغذية

وقوى المفردات » ، كما أنه له رسالة فى « ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه » وموسى بن العازار أحد أطباء المعز لدين الله ، مؤلف « شراب الأصول »[(١)] ، والطبيب على بن سليمان الذى عاصر العزيز بالله والحاكم بأمر الله والظاهر ، ومن مؤلفاته « الحاوى فى الطب » و « كتاب الأمثلة والتجارب » و كتاب « الخواص الطبية » وغيرها . والكحال أبو القاسم عمار بن على الذى عمل طبيباً للعيون فى أثناء حكم الحاكم بأمر الله . ولمع إسم الطبيب على بن رضوان (٩٨٠ — ح ١٠٦١ م) الذى برع فى الطب وعمل رئيساً للأطباء بالقاهرة فى أيام الحاكم بأمر الله وعلى أيام خليفتين آخرين ، الظاهر والمستنصر بالله ، وخلف ابن رضوان رسالة هامة عنوانها : « فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر »[(٢)] ، وذكر له ابن أصيبعة مائة واثنتين بين كتاب ورسالة ومقال ، منها شروح كثيرة لكتب قدامى الأطباء . ونبغ أيضاً الطبيب أبو الحسن سهلان الذى علا جاهه فى أيام العزيز بالله وقد خلف « كتاب فى الأقراباذين » عثر عليه الأب بولس سباط سنة ١٩٢٠ ، والطبيب « أبو الفتح منصور بن مقشر » و « داود بن أبى البيان » الذى برع فى تشخيص العلة ووصف العلاج ، وله فى الأدوية المركبة كتاب اسمه « الدستور » . ومن علماء العصر الفاطمى أبو عمران موسى بن ميمون ، وكان أبوه رياضياً وفلكياً وعالماً بالتلمود . اضطر موسى إلى مغادرة قرطبة حيث ولد مع أسرته إلى فاس فى عام ١١٤٨/٤٩ ثم قصد فلسطين وعاد منها ليستقر فى الفسطاط مع أسرته . وفى مصر زاول ابن ميمون صنعة الطب فاكتسب شهرة فائقة حتى اتخذه آخر الخلفاء الفواطم طبيباً له ، كما أنه شغل هذا المنصب أيضاً عند السلطان صلاح الدين الأيوبى

---

(١) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء . ط . السعادة ، ص ٢١٠ — ٢١١

(٢) Max Meyerhof: *Climate and Health in Old Cairo according to Ali ibn Radwan.* Cairo, Dec. 1928.

وقد توفى يوم ١٣ ديسمبر ١٢٠٤ تاركاً تآليف شتى فى الفلسفة والطب والفلك والمسائل الدينية .

وفى خاتمة هذا الرعيل من الأطباء ، نلتقى بالمبشر بن فاتك الحكيم الطبيب . كان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها . أجاد علوم الهيئة والعلوم الرياضية واشتغل أيضاً بصنعة الطب ، ولذلك لازم على بن رضوان . يقول ابن أصيبعة عنه أنه وجد بخطه كتباً شتى فى تصانيف المتقدمين ، وللمبشر ابن فاتك مجموعة من الأمثال[١] نسبت إلى قدماء الحكماء ، عنوانها « مختار الحكم ومحاسن الكلم » ، جمعها فى القرن الحادى عشر وترجمت هذه المجموعة إلى الإسبانية بعنوان « قطع الذهب » . ترجم هذا الكتاب الإيرل ريفرز إلى الإنجليزية بعنوان « أمثال الفلاسفة وحكمهم » . وكان هذا الكتاب أول مطبوع إنجليزى طبعه « وليم كاكستون » سنة ١٤٧٧ ، وكان رائد الطباعة فى انجلترا . وقد ظلت المؤلفات التى غذاها هذا الكتاب العربى ذات أثر فى عالم الفكر فى غرب أوروبا أكثر من أربعة قرون[٢] .

ونقابل فى العصر الفاطمى أيضاً ، الحسن بن الهيثم أعظم علماء الفيزيقا المسلمين ، وعبد الرحمن بن يونس المصرى الفلكي وأحد مشاهير الرياضيين الذين لمعوا بعد البتّانى . وابن الهيثم بصرى المولد مصرى النشأة (ت ١٠٣٩ م) وكانت مؤلفاته المرجع المعتمد فى البصريات عند علماء أوروبا حتى القرن السادس عشر واتفقت آراء جميع علماء الغرب على أن ابن الهيثم من الطراز الأول بين

---

(١) حقق الدكتور عبد الرحمن بدوى « مختار الحكم ومحاسن الكلم » وأصدره المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد عام ١٩٥٨ ضمن مجموعاته .

(٢) فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ، ص ٢٨٤ (الترجمة العربية) .

الرياضيين والفيزيقيين فى الشرق والغرب ، وقال عنه العلامة سارطون مؤرخ العلم أنه « أكبر عالم فيزيقى مسلم ، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر فى جميع الأزمان ، وكان أيضاً فلكياً ورياضياً وفيزيقياً ، وكتب شروحاً عدة على مؤلفات أرسطو وجالينوس .

وأهم كتب ابن الهيثم « كتاب المناظر » الذى ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتها ، ولا سيما فى موضوع إنكسار الضوء ، وتشريح العين ، وكيفية تكوين الصور فى شبكية العين ، وهناك مخطوط كامل من هذا الكتاب فى مكتبة « أيا صوفيا » ، وستة أجزاء من مخطوط آخر فى مكتبة الفاتح . ألف ابن الهيثم فى علم الفلك أيضاً ولم يصلنا من مؤلفاته فى الفلك إلا حوالى سبع عشرة مقالة من أربع وعشرين مؤلفاً ، كما ألف فى الحساب وفى الجبر والمقابلة ما لا يقل عن عشرة كتب ولا يعلم منها إلا كتابه « فى حساب المعاملات » بمكتبة عاطف بتركيا . كما ألف أيضاً فى الطب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللغة .

أما ابن يونس (ت ١٠٠٩ م) الفلكى ، فيعتبره سارطون من فحول علماء القرن الحادى عشر وقد يعتبر أعظم فلكى لمع اسمه فى وادى النيل . وابن يونس سبق غاليليو الإيطالى فى اختراع الرقاص وفى استخدامه فى الساعات الدقاقة وهو سليل أسرة اشتهرت بالعلم .

عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس فأجزلوا له العطاء وشجعوه على مواصلة أبحاثه فى الفلك والرياضيات ، وشيدوا له مرصداً على جبل المقطم بالقرب من الفسطاط وجهزوه بما يلزم من الآلات والأدوات . وابن يونس هو الذى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر فى القاهرة حوالى سنة ٩٧٨ م وأثبت منها تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج ، فجاء تقديره أقرب ما

عرف إلى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة . وبرع ابن يونس فى المثلثات وأجاد فيها وفاقت بحوثه فيها أبحاث كثيرين من العلماء ، وهو الذى اخترع آلة الربع ذات الثقب .

* * *

وحينما كان الأيوبيون يوجهون ضرباتهم ضد الصليبيين ، كان العلماء فى تلك الأيام يواصلون أبحاثهم العلمية ويؤلفون كتبهم ، فمن أطباء العصر الأيوبى ابراهيم بن الرئيس موسى بن ميمون . زاول عمله طبيباً فى خدمة السلطان لملك الكامل وفى الماريستان أيضاً وقد توفى بعد عام ١٢٣٣

وهناك الطبيب جمال الدين أبو الحسن بن يوسف القفطى ، صاحب كتاب « أخبار العلماء بأخيار الحكماء » . تلقى علومه بالقاهرة وأتم دراسته بالقدس ورحل إلى حلب ثم أصبح وزيراً فيها وتوفى عام ١٢٤٨ ولم يخلف القفطى ولداً ولم يكن يحب من الدنيا سوى الكتب ، فأوصى بمكتبته للملك الناصر ملك حلب . له مؤلفات كثيرة غير أنه لم يصلنا منها سوى « أخبار العلماء بأخيار الحكماء » وهو معجم تاريخى للفلاسفة والعلماء والأطباء من العرب وغيرهم مرتبين على حروف الأبجد .

وقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الأطباء اللامعين فى أيام صلاح الدين من هؤلاء : أبو البيان بن المدور (توفى بالقاهرة حوالى ١١٨٤ م) طبيب صلاح الدين الخاص وله « رسالة المجرّبات فى الطب » . والطبيب أبو المكارم هبة الله ابن الحسن صاحب المؤلفات الطبية الكثيرة ، والطبيب أبو المعالى بن هبة الله ، والكمال أحمد بن عثمان أبو العباس وهو ابن طبيب . تعلم أحمد الطب وحذق علاج المرضى وقد أطلق عليه « رئيس الأطباء بالديار المصرية » . وفى أثناء حكم

« التلويحات » اعتمد فيها على السهروردى . ولابن كمونة رسالة فى الرمد عنوانها « الكافى الكبير » ، وأخرى فى الكيمياء عنوانها « تذكرة فى الكيمياء » وبعد ما أعتنق ابن كمونة الإسلام ، ألف رسالة قابل فيها بين الإسلام واليهودية والنصرانية وجعل عنوانها « تنقيح الأبحاث فى البحث عن الملل الثلاث » . وقد ذكر بروكلمان مخطوطات ابن كمونة(١) .

ويقابلنا الطبيب أبو منصور سليمان بن حفاظ الكوهين (ت حوالى ١٢٩٥ م) الذى ألف موسوعة فى الطب عنوانها « كتاب المنتخب » اشتملت على سبعة أقسام أولها — فصل عام ، ثانيها — البسائط ، ثالثها — الأمراض العامة ، رابعها — أمراض بعض أعضاء الجسم ، خامسها — السموم والدهون ، سادسها — أضداد السموم ، سابعها — فصول طبية عن جالينوس وغيره .

ومن أطباء القاهرة : شهاب الدين أحمد بن المغربى رئيس الأطباء فى مصر والشام . قدم مصر واستوطنها وأقرأ العلم وباشر المرض وأحسن العلاج وكان موفور الحظ من السلطان والأمراء ، وهو والد الطبيب جمال الدين ابراهيم رئيس الأطباء عند الملك الناصر محمد بن قلاوون(٢) .

ومن ألمع أطباء العصر المملوكى ، محمد بن ابراهيم المعروف بابن البرهان الجرائحى . قرأ الطب على ابن أبى النفيس وغيره ثم قرأ الحكمة وكان يتردد على شمس الدين الأصبهانى وإلى الخانقاه القوصونية بالقرافة القبلية . مهر طبيباً ومتفلسفاً وتطلع إلى الكيمياء فتحدث فيها وصحح أقوال المتقدمين فى صحتها . وتوفى فى عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل فى عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢) .

---

(١) انظر المرجع السابق ، جـ ٢ القسم الثانى ، ص ٨٧٥ وبروكلمان جـ ١ ص ٤٣٧ و ٤٥٤ و ٥٠٧

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ، ص ٧٠ ، ٥٠١ ، ٦٤٠

ولدينا الكحال شمس الدين بن محمد بن برهان الدين ابراهيم الشهير بابن الأكفانى ويعتبره كثيرون خاتمة أطباء العيون المشهورين فى العصر المملوكى وقد مات فى أثنـاء الطاعون الذى اجتاح القاهرة سنة ١٣٤٨ م . قال عنه صلاح الدين الصفدى أحد تلاميذه : بأنه اشتهر بكافة العلوم الطبيعية وفى الرياضيات وعلم الهيئة وقد درس عليه كتاب إقليدس (المجسط) ، وكتبا أخرى . فاق زملاءه فى معرفته بأصناف الجواهر والأحجار الكريمة ، وقد عمل طبيباً ومشيراً لناظر بيمارستان قلاوون فى القاهرة . ألف إبن الأكنافى كتباً شتى ، منها : « إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد » و « الباب فى الحساب » و « غنية اللبيب عند غيبة الطبيب » و « نخب الذخائر فى معرفة أحوال الجواهر »(١) وكتاب « كشف الدين فى أحوال أمراض العين »(٢) ، رتبـه على ثلاث مقالات تشتمل على الفصول التالية(٣) :

الأولى : فى كليات أحوال العين وحدها وخواصها ومزاجها وحفظ صحتها ومعالجة أسقامها . والثانية : فى ذكر أمراض العين وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها الجزئية وأمراض الجفن وطبقـات العين السبعة ورطوبتها الثلاث وأعصابها وعضلاتها والتشنج فى العين . والثالثة : فى الأدوية المفردة مرتبة على حروف المعجم والعقاقير المركبة .

والطبيب ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير الذى عاش بين عامى ١٢٩٢ و ١٣٤٨ م . درس الطب على والده وقد نشأ فى بيت أطبـاء

---

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ أنستاس مارى الكرملى البغدادى ، المطبعة العصرية القاهرة ١٩٣٩

(٢) مخطوط رقم ٤٦ طب حليم ، دار الكتب المصرية .

(٣) د. سامى خلف حمارنه : تاريخ الطب والصيدلة عنـد العرب ، ص ١٦ — ١٧ ، القـاهرة ١٩٦٧

وفضلاء ، وكان يلعب بالعود لأناس يختص بهم ويتوفر على قربهم . توفى إثر إصابته بالطاعون عام ١٣٤٨ وكان من أطباء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدى فريضة الحج بصحبته عام ٧٣١ هـ .

ونذكر أيضاً الطبيب الحسين بن منصور بن على الاسنائى الذى عاش فى أواخر المائة السادسة أو أوائل السابعة . اشتغل بالطب فكان به قيما وعرف بالمعرفة وألم بالمنطق والصنائع والهندسة والحساب وعلم النجوم والطب ، وكان يطبب ويعطى ثمن الأدوية لمن يطلبه .

والطبيب صلاح الدين يوسف بن محمد المعروف بابن المغربى تولى رياسة الأطباء وتوفى ١٣٧٤ وينسب إليه جامع ابن المغربى بشارع الخليج الناصرى بجانب بركة قرموط .

والطبيب علاء الدين بن عبد الواحد بن محمد المعروف بابن صغير (ت عام ١٣٩٤) رئيس الأطباء بمصر وبرع فى صناعة الطب وتخرج بجماعة من علماء زمانه حتى برع وساد ، ووصف بأنه كان أعجوبة دهره . توجه إلى حلب بصحبة الملك الظاهر برقوق لأنه كان طبيبه وفيها توفى[١].

ونذكر الطبيب محمد بن اسماعيل أبو الوفا القاهرى . نشأ بها وتدرب فى الطب وصار من ذوى النوب بالبيمارستان وصار ممن يشار إليه بالبراعة والتدبير فى العلاج . توفى عام ١٤٢٧ ، والطبيب سراج الدين عمر بن منصور البهادرى الذى انتهت إليه الرياسة فى علم الطب والتقدم على أقرانه ، لكنه لم يتكسب بهذه الصنعة . عاش بين عامى ١٣٦٠ و ١٤٣١ ، وقد زاول عمله فى البيمارستان المنصورى ومسجد ابن طولون[٢].

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٥٦
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ص ٢٢٥

وكان من أبرع تلاميذه تاج الدين عبد الوهاب بن شمس الدين الشناوى . ولد عام ١٣٦٤ وتلقى علوم الدين على شيوخ عصره وأخذ الكحالة عن الشيخ سراج الدين البهادرى واشتهر بالتنجيم . اشتغل كحالا فى البيمارستان وعرف بكفاءته وحبه لتلاميذه وذرت عليه مهنته المال الوفير ، بيد أنه كان يجزل العطاء لأعمال البر . توفى عام ١٤٤٧ وصلى على جثمانه فى جامع الحاكم بأمر الله (١) .

ويقابلنا أيضاً الطبيب محمد بن عبد الوهاب بن صدقة القوصونى . مات والده عبد الوهاب الطبيب فى عام ١٤٣١ وحفظ القرآن وتعلم وتدرب فى صنعة الطب فتميز فيها ثم ترقى إلى رياسة الأطباء وحمد الناس أدبه وحسن علاجه وقد عاش بين عامى ١٤٣٠ و ١٥١١

بيمارستان المنصور قلاوون

مر بنا ذكر بيمارستان السلطان المنصور قلاوون وجدير بنا أن نتحدث بإيجاز عن هذه المؤسسة الخيرية التى عمل فيها أبرع الأطباء الذين عرفتهم مصر المملوكية .

كان الأمير القائد قلاوون الألفى فى أثناء قيامه بإحدى الحملات العسكرية فى الشام أصابه مرض أدى به إلى معالجته بأدوية جلبت له من بيمارستان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، فنذر إلى الله إن هو أبل من مرضه ليبنين بالقاهرة مارستانا يحاكي مارستان عاصمة الأمويين . . . وقد كان واستجاب الله دعاءه ، فشيد مستشفاه ومدرسته وقبته بعد ما اعتلى العرش ، وأصبح

(١) التبر المسبوك : ص ١٩٤ — ١٩٥

ينادى بالسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، (١٢٦٩ — ١٢٩٠ م) .

بدىء فى بناء البيمارستان فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤) وتم إنشاؤه فى حوالى ثمانيــة أشهر بعد أن ولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته وقد أقيم على جزء من أرض المستشفى القديم الذى كان موضعه دار الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية فاستولى السلطان عليها وعوضها عنه قصر الزمرد برحبة باب العيد ودفع إليها مبلغــاً من المال . وبعد الفراغ من بناء المارستان قال السلطان قلاوون :

« إنى بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر والعبد للذكور والاناث » .

وبقى المارستان يؤدى وظيفته إلى أن كانت سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤) حينما حدث زلزال خرب كثيراً من عمائر مصر ، فسقط الجزء الأعلى من مئذنة قلاوون ، فأمر ابنه السلطان الناصر محمد بتجديدها وكتب على قاعدتها ما يثبت هذا الإصلاح .

وحينما زار الرحالة ابن بطوطة مصر فى عام ٧٣٧ هـ (١٣٢٧) ، شاهد المارستان المنصورى ، فقال عنه : « ... أما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصى ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم ... » .

كان المارستان إبان إنشائه خير مؤسسة للعصر الطبى الإسلامى المزهر ، غير أن الأيام قضت عليه حتى صار فى أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) فى أسوأ حال كما شهد بذلك أطباء الحملة ، بعد أن كان فى عهده الغابر خير المستشفيات نظاماً وأتمها أقساماً ، ويعرف اليوم بمستشفى قلاوون للرمد .

دراسة المعادن والأحجار الكريمة

كانت دراسة المعادن موضع عناية العلماء العرب منذ أيام العباسيين والفواطم ، وذلك لحاجة الخلفاء والسلاطين والأمراء إلى الأحجار الكريمة لتزيين الملابس الفاخرة والمتـاع النفيس فى القصور ، وتقديمها هدايا للمقربين إليهم أو بيعها بأثمان مرتفعة فى الأسواق .

وصلت إلينا أسماء طـائفة من العلماء الذين اشتهروا بدراسة الأحجار الكريمة ، منهم بيلق القبجقى الذى عاش فى القاهرة حوالى ١٢٤٢ — ١٢٨٢ ، وألف قبيل وفاته كتاب « كنز التجار فى معرفة الأحجار » وقد أهداه للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، والجدير بالذكر أن بيلق هذا وصف فى كتابه البوصلة العائمة واستخدامها فى الملاحة .

ومن علماء الأحجار الكريمة فى مصر فى القرن الثالث عشر ، شهاب الدين أبو العباس أحمد التيفاشى (ت ١٢٩٣ م) . ألف كتابه « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » ، وصف فيه خمسة وعشرين نوعاً من الأحجار الكريمة وتناول كل نوع منها على حدة ذاكراً أنواعها وخصائصها وأثمانها . نشره عام ١٨١٨ الكونت الإيطالى أنطونيو رينرى بشيا فى إيطاليا ، ثم أعيد طبعه بالنص العربى وترجمته الإيطالية فى عام ١٩٠٦ وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ كليمنت موليه بعد إضافة الشروح والزيادات ونشره فى المجلة الأسيوية . وقد ألف التيفاشى كتباً أخرى ذكرها العـلامة جورج سارتون فى كتابه القيم « مقدمة فى تاريخ العلم » .

وقد تكلمنا فى الصفحات السابقة عن العلامة محمد بن ابراهيم المعروف بابن الأكفانى .

علم الحيوان

ونلتقى بكمال الدين محمد بن موسى الدميرى المولود بالقاهرة حوالى عام ١٣٤٤ م ، وهو مؤلف الموسوعة الكبرى فى علم الحيوان . كان أستاذ علم الحديث فى المدرسة الركنية بالقاهرة ثم أستاذاً بالأزهر وحج عدة مرات . له مؤلفات جليلة ، أشهرها كتاب « الحيوان الكبرى » الذى يقع فى قرابة أربعمائة صفحة[١] ، وعالج فيه الدميرى موضوع حياة الحيوان بالطريقة التى جرى عليها غالبية العلماء العرب من حيث ترتيب أسمائها حسب حروف الهجاء ، وقد جمع بين الطائر والسمك والحشرات والزواحف وهكذا ، كما جمعت الطريقة بين مادة العلم الطبيعى من وصف الحيوان وسلوكه وموطنه وبين ما روى فيه من شعر وأدب ونوادر مما يجعل قراءته ميسرة ومحببة إلى جانب ما فيها من نفع وفائدة علمية . وقد عنى المستشرقون عناية ملحوظة بكتاب الدميرى ، فترجموا مقتطفات شتى منه إلى اللغات الأجنبية فى عصور النهضة الأوربية .

الفلك والرياضيات

وفى العصر المملوكى ، نبغت طائفة من علماء الفلك ، منهم أبو زكريا يحيى الشهير بابن اللبودى (ت بعد ١٢٦٧ م) وكان رياضياً وحساباً . والفلكى أبو عبد الله محمد بن أحمد المزى الحنفى (ت ١٣٤٩ م) . تعلم بالقاهرة وعاش فى دمشق حيث اشتغل مؤذناً فى المسجد الأموى . صنع عدة أسطرولابات وآلات الربع ، وله واحدة منها فى مكتبة لينجراد ، صنعه فى دمشق عام ١٣٣٣ / ٣٤ ونقش عليه إسم صاحبه ناصر الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم . ألف

---

(١) طبع فى القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ وعلى هامشه كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للامام العلامة زكريا بن محمد القزوينى .

عدة رسائل فى كيفية صنع أجهزة معرفة الوقت وكيفية استخدامها . وقد ذكر بروكلمان تلك الرسائل[١] مرتبة كالآتى :

١ — الرسالة الأسطرلابية .
٢ — كشف الريب فى العمل بالجيب .
٣ — الروضات المزهرات فى العمل بربع المقنطرات .
٤ — الرسالة فى العمل بالمنحة (نوع من الأسطرلاب) .
٥ — نظم اللؤلؤ فى المهذب فى العمل بالربع المجيب .
٦ — رسالة فى العمل بالربع المسطر .
٧ — مختصر فى العمل بالربع الدائرة .

ويقابلنا شهاب الدين أبو العباس أحمد (ابن ماجد) المـــولود بالقاهرة (١٣٥٨—١٤٤٧) ، ألف رسائل شتى فى استخدام آلات الربع وفى الملاحظات الفلكية وعدة جداول فلكية ، ذكر بروكلمان منها ستة وعشرين كتاباً ورسالة ، ويرجح أنه كرر بعضها ، وفيما يلى مؤلفاته فى استخدام آلات الربع :

١ — خلاصة الأقوال فى معرفة الوقت ورؤية الهلال .
٢ — المنهل العذب الزلال فى تقييم الكواكب ورؤية الهلال .
٣ — إرشاد الحائر إلى تخطيط فضل الدائر .
٤ — زاد المسافر فى معرفة رسم خطوط فضل الدائر .
٥ — رسالة فى العمل بربع المقنطرات المقطوع .
٦ — إرشاد السائل إلى أصول (أحوال به) المسائل ، وهى عبارة عن تعليقات على رسائل عبد الله بن خليل الماردينى وعنوانها : « الدر المنثور فى العمل بربع الدستور » .

---

(١) بروكلمان : ج ٢ ، ص ١٢٦

٧ — الروض الأزهر (شرح العمل بالمسطح) .
٨ — تحفة الأحباب فى نصب الباذهنج والمحراب .

وألف أبو العباس أحمد عن الشمس والقمر الرسائل الآتية :

٩ — دستور النيرين .
١٠ — عقد الدرر فى العمل بالقمر .
١١ — تقدير القمر (جداول عن القمر) .

وألف فى علم الحساب :

١٢ — كشف الحقائق فى حساب الدرج والدقائق .
١٣ — المفتكرات الحسابية ، وهذا المخطوط فى مكتبة الإسكوريال .

ومن علماء الرياضة فى العصر المملوكي : تقى الدين الحنبلى بن عز الدين الذى عاش حوالى عام ١٤٠٩ وقد كتب رسالتين في الحساب ، إحداهما عنوانها : « حاوى اللباب فى علم الحساب » ، ومخطوطتها فى دار الكتب الوطنية فى باريس رقم (٢٤٦٩) وتاريخها ١٤٠٩/١٠ ، ومعاصره عالم الحساب ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن الهائم الفرضى الذى ولد بالقاهرة (١٣٥٢ م) وقد علمّ مدة طويلة فى المدرسة الصلاحية التى أسسها صلاح الدين بالقدس ، وقد توفى فى عام ١٤١٢ ، ألف رسائل شتى فى علم الحساب ومسائل الميراث والجبر ، وذكر العلامة سوتر (Suter) عشرة منها ، أما بروكلمان فذكر له ١٨ رسالة وكتاباً .

الكيمياء

حظيت مصر المملوكية بالكيميائى عز الدين على بن أيدمر الجلدكى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، ويعتبر آخر علماء الكيمياء العرب ذوى الشهرة . خلف قرابة عشرين مصنفاً فى علوم الكيمياء والحكمة ومن أهمها « البرهان فى

علم الميزان » (مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٥ كيميا) . والكتاب مرتب على أربعة عشر باباً ولم ينشر بعد . وفي الكتاب المذكور قدم لنا الجلدكي سرداً لأسماء وأبحاث الكيميائيين العرب الذين سبقوه وأمدنا ببعض تجارب ونظريات استخدمها كيميائيو عصر النهضة الأوروبية .

وكان الجلدكى أول من قال بأن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان معينة ، وهذا هو قانون النسب الثابتة فى الاتحاد الكيميائى الذى توصل إليه العلامة الفرنسى جوزيف پراوست عام ١٧٩٩ . والجلدكى أول من أدرك إمكان فصل الفضة عن الذهب بتأثير حامض النتريك الذى يذيب الفضة ويترك الذهب ، وله كتابان آخران فى الكيمياء ، يسمى أولهما : « نهاية الطلب » ، وثانيهما : « التقريب فى أسرار التركيب » ويبلغ كل منهما حوالى ألف صفحة ، وهما يشبهان موسوعة علمية اشتملت على الكيمياء الاسلامية ومبادئها ونظرياتها وأبحاث علمائها ونتائج تجاربهم مع وصف العمليات المستخدمة فيها كالتقطير والتصعيد والتطليس وغير ذلك(١) . والمعروف أن الجلدكى توفى بالقاهرة عام ١٣٦١ م .

إختراع البارود :

وفى منتصف القرن التاسع عشر ، أثبتت بحوث العالمين رينو وفافير(٢) وغيرهما أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدفع السهل الانفجار الدافع للقذائف ، وكان من رأى هذين العالمين من قبل أن اختراع البارود يعود إلى الصينيين ، بيد أنهما بعد اطلاعهما على مخطوط نجم الدين حسن الرماح المصرى الذى عاش

---

(١) محمد محمد فياض : جابر بن حيان وخلفاؤه ، ص ٩٦ — ٩٧

(٢) Extractsfrom the *«Kitab al-Furusiyah»* in Arabic and French are given by Joseph I. Reinaud and J. Favé: *Histoire de l'artilleree* (1er partie). Du Fen grégois, des feux de guerre et d origine de le poudres à Canon. Paris 1845.

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وعنوانه : « كتاب الفروسية والمناصب الحربية » وتوجد مخطوطته بنسختيها فى دار الكتب الوطنية فى باريس ، أثبتا أن اكتشاف البارود واستخدامه يعود قطعاً إلى حسن الرماح ، والمعروف أن عالم النبات ضياء الدين بن البيطار (ت ١٢٤٨) مؤلف كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، كان أول عربى ذكر فى كتابه كلمة « بارود » مرتين .

والنص الكيميائى لتكوين البارود كما ورد فى مخطوط حسن الرماح(١) وصف الذخيرة التى تدك في المدفع وبيان نسبتها : تؤخذ عشرة دراهم من البارود ودرهمان من الفحم ، ودرهم ونصف درهم من الكبريت ، وتسحق جيداً حتى تصبح كالنبار ، ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفزاره . ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تناسب جسامته فوهته ، وتدك الذخيرة فيه بشدة ، ويضاف إليها إما بندق وإما نبل ثم تشعل ، ويكون قياس المدفع مناسباً لثقبه ، فإذا كان عميقاً أكثر من اتساع الفوهة كان ناقصاً .

والمعروف أن حسن الرماح توفى حوالى عام ٦٩٤ هـ (١٢٩٥) وهو فى شبابه .

أما الحديث عن علماء الدين واللغة والآداب بمفهومها الفسيح فى تلك الحقبة ، فأرجو أن يكون من حظ غيرى . . .

عبد الرحمن زكى

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، الطبعة الرابعة ، ص ٤٨١

الأعياد في مملكة غرناطة

حينما فتح العرب شبه جزيرة إيبريا ، استفادوا من وديان أنهارها الممتدة فى خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس ، وجعلوا منها خطوطاً دفاعية لحماية دولتهم من أخطار الدول النصرانية الشمالية . فاتخذوا من وادى الإبرو Ebro خطاً دفاعياً أول ، وسموه بالثغر الأعلى ، وكانت قاعدته مدينة سرقسطة ؛ كما اتخذوا من وادى التاجو Tajo خطاً دفاعياً ثانياً وسموه بالثغر الأدنى ، وكانت قاعدته مدينة طليطله . كذلك جعلوا من الوادى الكبير فى الجنوب خطاً ثالثاً عليه العواصم الأندلسية مثل قرطبة واشبيلية وقادس(١) .

وبمضى الزمن ، ونتيجة لتفرق كلمة المسلمين ، أخذت هذه الخطوط تنهار واحداً بعد الآخر فى يد المسيحيين . ومن العجيب أن أول خط سقط فى أيديهم كان الخط الثانى أو الثغر الأدنى سنة ١٠٨٥ م حينما استولى ملك قشتالة ألفونسو السادس على طليطله فى عصر ملوك الطوائف . واستطاع الإسبان بهذا العمل أن يصلوا إلى قلب الأندلس ، ويفصلوا شماله عن جنوبه تمهيداً للاستيلاء عليه كله ، وفى ذلك يقول الشاعر المعاصر ابن العسال الطليطلى :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس　　فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى　　ثوب الجزيرة منسولا من الوسط(٢)

---

(١) راجع مقالنا عن حياة الحرب والجهاد فى المغرب والأندلس ، البينة عدد يناير سنة ١٩٦٣ (الرباط) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٨

وأمام هذا الخطر الداهم ، استنجد الأندلسيون بدولة المرابطين الفتيــة فى المغرب ، فلبت نداءهم ، واستطـاعت أن تنقذ الأندلس من ضياع محقق ، وأن تنتصر على الاسبان فى عدة مواقع أهمها الزلاقة سنة ١٠٨٦ م ، وإقليش Uclés سنة ١١٠٨ م ، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من استرداد طليطلة قاعدة خط التاجو أو الثغر الأدنى . وفى أواخر أيام دولة المرابطين سقطت مدينــة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى فى يد ملك أراجون الفونسو الأول سنة ١١١٨ م وانهار بسقوطهــا وادي الابرو وهو الخط الدفاعى الأول . وكان لهذا الحادث أثر كبير فى سقوط دولة المرابطين ، وقيــام دولة مغربية أخرى مجاهدة وهى دولة الموحدين . واستطاع الموحدون أن يكونوا إمبراطورية كبيرة شملت جميع المغرب العربى والأندلس ، كما تمكنت جيوشهم ، ولا سيما فى عهد الخليفــة يعقوب المنصور الموحدي أن تحرز انتصاراً كبــيراً على الإسبان فى وقعة الأرك Alarcos سنة ١١٩٥ م ، وأن تصل فى زحفها إلى أقصى شمال اسبانيا[١] . غير أن الموحدين مع ذلك لم يتمكنوا من استرداد هذه الخطوط الدفاعيــة فى الثغرين الأعلى والأدنى ، بل نجد أن الدول الأوربية بزعامــة البابا انوسنت الثالث قد تكاتفت ضدهم ، ووجهت إلى الأندلس حملة صليبية على غرار الحملات الصليبية الموجهة إلى المشرق . وبهذه القوة الكبيرة انتصر المسيحيون على جيوش الموحدين انتصاراً حاسماً فى موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ١٢١٢ م. ولم تتحمل دولة الموحدين هذه الكارثة ، فانهارت تمــاماً وانهار معها الخط الدفاعى الثالث وهو الوادى الكبير بمــا عليه من مدن كـبرى مثل قرطبة واشبيلية وجيان وقادس . وانسحب المسلمون إلى الركن الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة إيبيريا حيث جبال البشرات Alpujarras وجبــال شلير

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦٩ — ١٧٩

Sierra Nevada ، فتحصنوا بها ودافعوا عنها دفاع البائس المستميت ، وتمكنوا بزعامة قائد شجاع اشتهر فى هذه الحروب الأخيرة وهو محمد بن يوسف ابن نصر ، أن يؤسسوا هناك آخر مملكة إسلامية فى اسبانيا وهى مملكة غرناطة سنة ١٢٣٨ م . ولقد اشتملت هذه المملكة على الأراضى التى تقابلها اليوم ولايات غرناطة ، والمرية ، ومالقة ، وأجزاء من ولايات جيان وقرطبة واشبيلية وقادس[١] . وكانت عاصمتها مدينة غرناطة Granada ، وهى مدينة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير ، ويخترقها نهر شنيل Genil أحد فروع الوادى الكبير ، وهو يعتبر وادياً صغيراً (٢١١ ك. م.) إذا قورن بوادى النيل مثلا (٦٥٠٠ ك. م.) ، ولكن كتابهم قدروه بألف نيل ! مثال ذلك قول الوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب : « وما لمصر تفخر بنيلها ، وألف منه فى شنيلها ! ؟ » ، لأن الشين عند المغاربة تعنى الألف فى العدد ، فقوله شنيل إذ اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل[٢] . كذلك كان يشق مدينة غرناطة وادى حدرُّه Darro (١١ ك. م.) ثم يصب فى شنيل . وكانت تقع عليه عدة قناطر مثل قنطرة القاضى التى ما زالت آثارها باقية إلى اليوم .

وفى جنوب غرب غرناطة كانت تمتد مروجها الخصبة التى كانت تسمى بالمرج أو الفحص أو البقاع ، ومن هذه الكلمات جاءت تسميتها الاسبانية Alfoz ، Vega وقصبة مدينة غرناطة ، هى مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالحمراء ، وهو اسم قديم ورد ذكره لأول مرة فى أيام ثورة المولدين التى قام بها عمر بن حفصون فى القرن الثالث الهجرى[٣] . وواضح أن هذا الاسم راجع

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٦ ص ٢٥٧ وكذلك :
Simonet: *Descripción del Reino de Granada*, p. 33.

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٢

(٣) راجع (أبو الحسن النباهى : نزهة البصائر والأبصار ، القسم الخاص بتاريخ بنى نصر ، نشر جوزيف مولر فى كتابه نخب من تاريخ المغرب العربى :
Müller: *Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber*, I, p. 102-140.

إلى لون تربة الهضبة التى بنيت عليها ، والتى سميت بالسبيكة لهذا السبب Monte de la Asabica ، وفى ذلك يقـول الشاعر الغرناطى ابن مالك الرعيـــــنى :

ترى الأرض فضة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب[١]

ومن هذا نرى أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بنى الأحمر الذين حكموها بعد ذلك ، فتشابه الإسمين هو محض مصادفه .

وقيام مملكة غرناطة أو دولة بنى الأحمر أو بنى نصر كان فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) على يد القائد العربى الأندلسى الغـالب بالله محمد بن يوسف بن نصر . . .[٢] بن عقيل بن نصر بن قيس بن سعد بن عبـاده . وواضح من نسبه أنه ينتمي إلى سيد الخزرج سعد بن عبـاده الذى عاون الرسول فى دار الهجرة . أما تسميته هو وأبناؤه من بعده ببنى الأحمر ، فنسبة إلى جده عقيل بن نصر الذى لقب بالأحمر لشقرة فيه[٣] . وقد استمر هذا اللون الأشقر يظهر فى بعض أفراد هذه الأسرة مثل محمد السادس الذى لقب فى المصادر الإسبانية بالبرميخو Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب إلى الحمرة ، وهو لون شعره ولحيته[٤] . ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا من اللون الأحمر شعـاراً

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥

(٢) أشاد ابن سعيد المغربى بشجاعـــة هذا القائد وجهاده فى مغاورة العدو ، وقال بأن هذه الصفات عند الأندلسيين كانت هي الأساس عند اختيار ملوكهم فى هذه الفـــترة العصبية . راجع : (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠١) .

(٣) انظر (Müller: *Op. cit.*, I, p. 102-111) وكذلك E. Lafuente Alcántara: *Inscripciones Árabes de Granada,* p. 18-19.

(٤) راجع : (Mariana: *Historia General de España,* II, p. 221.)

لهم فى لون قصورهم وقبابهم(١) وأعلامهم(٢) ، بل وفى لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية(٣) .

ولقد وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالا شامخة مثل جبال شلير والبشرات التى سهلت مهمة الدفاع عنها ، كما وهبتها أيضاً ساحلا طويلا يمتد من ألمرية شرقاً إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوبـاً ، وهذا جعلها — رغم صغر حجمها — دولة من دول البحر الأبيض المتوسط . ولقد عرفت هذه المنطقـة الساحلية الغرناطية باسمها القديم وهو البلاد البحرية التى ظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمحارس التى ورثتها عن أسلافها المجاهدين منذ أيام الأمويين(٤) . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضـل الله العمرى (ت ٧٤٨ ﻫ) وصفـاً قيماً لأسطول غرناطة ونشاطه وقواعده فى هذه المنطقـة بقوله : « وبالبلاد البحرية أسطول حراريق للغزو فى البحر الشامى يركبها الأنجاد من الرماة والمغـاورين والرؤساء والمهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون فى الغالب ، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل ، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم ، ويأتون بهم بـلاد المسلمين ، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان ، فيأخذ منهم ما شاء ويهدى ويبيـع(٥) .

---

(١) مثل قول شاعر الحمـراء عبد الله بن زمرك فى (المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ٤٦ ، ٧١) :

وترى القباب الحمر ترفع للندى فـترى العمائم تحتهـا كالأنجم

(٢) يقول فى ذلك عبد الله بن زمرك (المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ٧٦) :

خفقت به أعلامك الحمـر التى بخفوقها النصر العزيز موكل

(٣) ورد وصف لون هذه الرسائل فى مجموعة الوثائق العربية التى نشرها ألاركون ولينارس باسم Alarcón y Linares: *Documentos árabes diplomáticos del archivo de la Corona de Aragón*, p. 115, 119, 124).

(٤) راجع كتابنا (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٩٣) .

(٥) راجع التفاصيل فى (ابن فضل الله العمرى : كتـاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ص ٤٤ — ٥٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس) .

هذا ، ويلاحظ أن الوضع الجغرافى لهذه المملكة الصغيرة بين عدة دول تفوقها عدة وعددا ، وتحيط بها من كل جانب وهى : قشتالة شمالا ، وأراجون شرقاً ، والبرتغال غرباً ، ودولة بنى مرين فى المغرب جنوبـــاً ، قد جعل سياستها مرتبطة بتلك التيـارات السياسية التى حولها ، ولهذا لم تلتزم سياستها جانباً واحداً من هذه القوى المحيطة بها ، بل كانت تتغير وتتبدل فى حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها ، وتمشياً مع سلامـة مصالحها مع جيرانها : فتارة تتقرب من المغرب ضد قشتالة ، وتارة أخرى تتقرب من قشتالة ضد المغرب[١] ، وتارة ثالثة تتقرب من ملوك أراجون أو ملوك البرتغـال ضد قشتالة أو العكس وهكذا . فهذه السياسة الماهرة الماكرة التى سلكتها غرناطة ، مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمـة بين هذه الدول اصالحهـا . ولقد أشاد المؤرخون بالدبلوماسية الغرناطية ووصفوها بصفة تدل على المرونة والمهارة وهى : « سياسة اللعب بالثلاث ورقات » Juego de tres Barajas [٢] .

ولا شك أن وجود غرناطة بين ثلاث دول مسيحية وهى قشتالة وأراجون والبرتغال ، قد جعلها فى حالة حرب أو استعداد دائم للحرب مع تلك الدول . وقــد أشار الوزير الغرناطى ابن الخطيب إلى الاعداد الحربى للشباب الغرناطى بقوله : « والصبيان تدرب على العمل بالسلاح ، وتعلم الثاقفة كما يعلم القرآن فى الألواح » [٣] .

---

(١) اتبعت غرناطة سياسة ودية نحو المغرب بصفة عامة ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بنى مرين فى بلادها ، وتخشى أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل ، ولهــذا كانت فى بعض الأحيان تتحالف مع قشتــالة أو أراجون ضد المغرب . راجع الفصل الأخير من كتابنا : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠٢ وما بعدها .

(٢) راجع : (Sánchez Albornoz: *La España Musulmana*, II, p. 392, 399)

(٣) انظر : Gaspar Remiro: *Correspondencia diplomática entre Granada y Fez en el siglo XIV*, p. 265.

ومن الطريف أن هذه العبارة تتفق مع ما جاء فى المدونات الاسبانية من أن جميع أفراد الشعب الغرناطى حتى الأطفال منهم قد اشتهروا بمهارتهم فى استعمال القوس والنشاب وترييش السهام إلى درجة أثارت إعجاب أعدائهم[١] . ولعل الاحتفالات الشعبية التى تقام حتى اليوم فى اسبانيا ويمثل فيها القتال بين المسلمين والمسيحيين أو ما يعرف باسم Moros y Cristianos تعطينا فكرة عن هذه الحياة الحربية التى سادت اسبانيا فى العصر الوسيط .

على أن هذه الحياة الحربية القاسية التى اشتهر بها الشعب الغرناطى ، كانت تخفى وراءها حياة أخرى تتسم بطابع المرح والبهجة . ويظهر ذلك واضحاً فى أعيادهم التى كانوا يحتفلون بها فى المناسبات المختلفة . وقد أعطانا المؤرخ الغرناطى ابن الخطيب صورة جميلة لأفراد الشعب الغرناطى عند قوله بأنهم « كانوا سنيين على مذهب الامام مالك بن أنس ، وأن أخلاقهم كانت جميلة وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وشعورهم سود مرسلة ، وقدودهم متوسطة ، تميل إلى القصر ، وألوانهم بيضاء مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية تغلب عليها الإمالة ، وأخلاقهم أبية ، والعمائم تقل فى زيهم إلا ما شذ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ، وأعيادهم حسنة مائلة إلى الاقتصاد ، والغناء بمدينتهم فاش حتى فى الدكاكين التى تجمع كثيراً من الأحداث ، وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن . وقد بلغن من التفنن فى الزينة ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض فيها عين الدهر[٢] .

---

(١) راجع (W. Prescott: *History of Ferdinand and Isabella*, p. 173)

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٧ — ٣٨ (طبعة القاهرة)

وكانت الأعياد فى غرناطة كثيرة ومتنوعة ، نذكر منهـا الأعياد الدينية مثل عيدى الفطر والأضحى ، وعيد المولد النبوى فى ١٢ ربيع الأول ، وموسم عاشوراء فى العاشر من المحرم . ثم هناك عيد العصير(١) الذى كان يقام عند جنى محصول العنب وعصره وهو المحصول الرئيسى فى البلد ، فكان الأهالى يغـادرون ديارهم وينتقلون إلى حقول الكروم حيث يقيمون عدة أيام لجمـع المحصول فى جو يسوده المـرح والرقص والغنـاء . ويشير ابن الخطيب إلى أن هؤلاء الناس كانوا يحملون أسلحتهم معهم دائمـاً ، لأن هذه الحقول كانت مكشوفة ومجاورة لحدود العدو(٢) .

كذلك كانت هنـاك الأعياد التى تقام بمنـاسبة الانتصارات الحربية ، أو بمناسبة عذار أبناء السلطـان أو زواجهم(٣) . كذلك شارك الغرناطيون إخوانهم المسيحيين فى أعيـادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح ، وعيد العنصرة أو عيد سان خوان الذى يحتفل به فى اسبانيا فى ٢٤ يونيو ، وهو يقابل عيد النيروز فى الشرق الذى يحتفل به فى شهر سبتمبر(٤) . وهذه المشاركة الروحية ترجع إلى الحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون فى الأندلس جنباً إلى جنب قروناً طويلة ، كما ترجع أيضاً إلى نظرة الاحترام التى يكنها المسلمون نحو السيد المسيح كما ورد فى القرآن الكريم .

---

(١) يلاحظ أن كلمة عصير لم تطلق على عصير العنب فقط بل على التين الرطب أيضاً بدليل قول ابن الخطيب فى وصف مدينة الحمة : وعصيرها لا يليق بالأكل . راجع كتابنـا (مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى المغرب والأندلس ص ٩٣ حاشية ٢) .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٣٧ — ٣٨ وكذلك :

Pedro Longas: *Vida religiosa de los moriscos,* p. L.

(٣) راجـع وصف ذلك فى (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٦٥ ، جـ ١٠ ص ١٣ — ١٦).

(٤) انظر Dozy: *Supplement aux dictionnaires arabes,* II, p. 621.

Pérez de Hita: *Guerras civiles de Granada,* I, p. LXXV, prólogo, y p. 77.

ولقد جرت العادة أن يحتفل الغرناطيون بأعيادهم بوسائل مختلفة أهمها :

١ — ألعاب الفروسية ومصارعة الوحوش وحفلات الصيد .

٢ — الغناء والموسيقى والرقص .

٣ — الاحتفالات الدينية .

أما ألعاب الفروسية ومصارعة الوحوش ، فكانت تقام فى حلبات أو ساحات متعددة فى مدينة غرناطة مثل ساحة باب الرملة ، وساحة باب الطوابين ومكانه اليوم طريق العذراء Carretera de la Virgen ، وكذلك فى قلعة الحمراء نفسها أمام برج الغدر (جمع غدير) Algodor ، ويسمى اليوم Torre de los siete suelos [(١)] فيروى ابن الخطيب أنه كانت تقام فى إحدى هذه الساحات دائرة خشبية فى الهواء تسمى الطبلة ، ثم تأخذ الفرسان فى قذفها برماحهم أثناء ركضهم بخيولهم[(٢)] . كذلك كانت تقام المبارزات الفردية والجماعية التى تمثل معركة حقيقية قد يصاب فيها البعض بجراحات . هذا إلى جانب الاحتفال بعرض قوات الجيش أمام السلطان وعدد من الضيوف الأجانب من البلاد المجاورة سواء أكانت إسلامية أو مسيحية . وكان يوجد بجوار قصر الحمراء ، قصر خاص أعد لإقامة هؤلاء الضيوف ، ويعرف بدار الضيافة[(٣)] .

أما مصارعة الوحوش ، فكانت تدور حول مصارعة الثيران ، ومرجعنا فيها هو لسان الدين بن الخطيب . والواقع أن ما أورده هذا المؤرخ الغرناطى

---

(١) راجع: F. Simonet: *Descripción del Reino de Granada,* p. 188 & Seco de Lucena: *La Alhambra,* p. 34.

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ورقة ٤٤١ (نسخة الاسكوريال) .

(٣) راجع كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمؤلف مجهول ص ٣ ، نشر الفريد البستانى مع ترجمة اسبانية للأب كارلوس كيروس (العرائش ١٩٤٠) .

عن هذه المصارعة ، لم يرد فى الموسوعة الكبرى التى كتبها عن الثيران خوسيه ماريـا قوسيو José María Cossio إذ أن مؤلف هذه الموسوعـة يرى أن مصارعة الثيران بدأت فى اسبانيا عند انتهاء الحكم الإسلامى فيها أي فى القرن الخامس عشر الميـلادى(١) ، فى حين أن ابن الخطيب الذى عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى ، يذكر صراحة فى كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة بأنها كانت موجودة على أيامه وأنها كانت على طريقتين :

الطريقة الأولى : كانت حربـاً بين الثور والأسد ، وأنه شاهدها بنفسه ، وقد أسفرت عن انتصار الثور وجرح الأسد ، وعندئذ خرجت طائفـة من الرجال المسلحين ، أخذوا يناوشون الأسد الجريح إلى أن قتلوه بعد أن افترس بعضهم(٢) .

الطريقة الثانيـة : كانت بين الثور والإنسان ، وكانت منتشرة بين عليـة القوم من أهل غرناطة . وهذا أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة . وكانت الطريقة كما يصفها ابن الخطيب هى أن يطلق الثور أو البقر الوحشى كما يسميه ، ثم تطلق عليه كلاب اللان المتوحشة ، فتأخذ فى نهش جسمه وأذنيه ، وتتعلق بهما فى صورة القرط من آذانها(٣) . وهذا العمـل التمهيدى ، كان الغرض منه هو الحد من قوة الثور وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقـامه اليوم عمل رماة السهام Banderilleros ، وطاعن الرمح Picador ، وذلك تمهيداً للقـاء المصارع الذى كان فارساً مغواراً يصارع الثور على فرسه المدرب ثم يقتله فى النهاية برمحه . وهذا النوع من المصارعة لا يزال قائمـاً إلى اليوم

---

(١) انظر José María Cossio: *Los Toros,* tratado técnico e histórico, 3 tomos, Madrid, 1945-1947.

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبـار غرناطة ج ٢ ص ٦ – ٧ (طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ) .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ورقـة ٤٤١ (نسخة الاسكوريال) .

فى اسبانيـا ، ويسمى الفـارس المصارع باسم Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذى يستعمله فى قتل الثور واسمه Rejón . وقد أعطانا الشاعر المعاصر عبد الله بن زمرك صورة لذلك عند قوله فى مدح سلطـان غرناطة محمد بن يوسف الغنى بالله :

وطاردتَ مقدام الصوار بجادح   يصاب منـه الصماخُ أو الإبط
متين الشوى فى رأسه سمهريـة   مقصرة عنهن ما ينبت الخط(١)
وقد كان ذا تاج فلمـا تعلقـا   بسامعتيـه زانه بينهـا قـرط(٢)

وقوله أيضاً فى نفس المعنى :

وطاردت الصوار بكـل ضار   كما اتبعت عفريتـا شهابا
ضربت بـه على الآذان منهـا   فلم تسطـع حراكا واضطرابـا
ومعصوب الجبين بتـاج روق   يروع خـواره الأسد الغضـابا
تعرف أن تحت الأرض ثوراً   فرام بأن يشق له الترابـا(٣)

ومثـل قوله :

سود وبيض فى الطراد تتابعت   كالليـل طارده بياض نهار
أثبت فيه الرمح ثم تركته   خضب الجـوانح بالدم المـوار(٤)

---

(١) الخط : موضع في خليج البحرين كانت تباع فيه الرماح — الخطية — المستوردة من الهند .
(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ١٦٥
(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ١٥٧
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ١٦ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ١٠٦

كذلك يذكر ابن الخطيب أن سلطان غرناطة أبا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان ولياً للعهد ، خرج للصيد يوماً فقابله خنزير جبلى Jabalí ، فطرح نفسه عليه ، فكبا به فرسه ، واستقبله ذلك الخنزير ، فاستل الأمير سيفه وعاجله بضربة تحت عينيه أبانت فكيه ، وأطارت محل سلاحه . وتلاحق به فرسانه وقد يئسوا من خلاصه ، فرأوا ما بهتوا له ، وبشروا بذلك والده السلطان محمد الفقيه (الثانى) ، فسر سروراً عظيماً [١] .

وإلى جانب حفلات الصيد والفروسية ومصارعة الوحوش ، كان الغناء والموسيقى يمثلان عنصراً بارزاً فى الأعياد الغرناطية . ويلاحظ أن اسبانيا عموماً تعتبر فى طليعة الدول التى برزت فى ميدان الموسيقى والغناء فى عصورها التاريخية المختلفة [٢] . ففى العصر الأموي مثلا نجد أنها رغم استقلالها عن المشرق من الناحية السياسية ، إلا أنها فتحت أبوابها لجميع ألوان الفنون والآداب التى ظهرت فى المشرق . فالمدارس الموسيقية الأولى التى ظهرت فى الحجاز ولا سيما فى مكة والمدينة فى القرن الثانى للهجرة ، لم تلبث أن انتقلت إلى الأندلس على أيدى الفنانين والفنانات الذين هاجروا إليها . ويكفى أن نتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، لنجد أمثلة عديدة لهؤلاء الفنانين الحجازيين الذين انتقلوا إلى الأندلس فى أوائل العصر الأموي أمثال عجفاء وقلم والثنائى علون وزرقون وغيرهم . كذلك يؤثر عن عبد الرحمن الأوسط أنه بنى قصراً خاصاً لمغنياته المدنيات عرف بدار المدنيات . وحينما بنى العباسيون مدينة بغداد ، وظهرت فيها المدارس العراقية الموسيقية على يد ابراهيم الموصلى وولده اسحاق وتلميذه أبى الحسن بن نافع الملقب بزرياب ، لم يلبث هذا اللون من الموسيقى

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ورقة ٣٥٦ (نسخة الاسكوريال) .

(٢) انظر (J. Ribera: *La Música de las Cantigas*, p. 61, Madrid, 1922).

أن انتقل إلى الأندلس على يد زرياب نفسه الذى هاجر بأولاده وجواريه إلى قرطبة فى القرن الثالث الهجرى ، وأسس هنــاك مدرسة موسيقية لم تلبث أن طغت شهرتها على الموسيقى المدنية وانتشرت فى جميع أنحــاء اسبانيا الإسلامية والمسيحيــة على السواء[١] .

وحينما انحصر ملك المسلمين فى مملكة غرناطة ، حافظت هذه الدولة الصغيرة على ذلك التراث الموسيقى الأندلسى العريق ، بل وأخذت تصدره — كما يقول ابن خلدون — إلى البلاد المغربية [٢] ، التى حافظت عليه بدورها حتى اليوم . فالموسيقى الأندلسية التى نسمعها اليوم فى كل من الجزائر والمغرب وتونس ، ما هى إلا رواسب لموسيقى زرياب القديمــة [٣] . ففى مقال للعالم التونسى حسن حسنى عبد الوهاب عن الموسيقى التونسية ، ورد أنه يوجد حتى اليوم لون من الغناء الشعبى التونسى يعرف بلحن غرناطة[٤] ، مما يدل على أن غرناطة كانت مركز إشعاع فنى وثقافى للبلاد المغربية لا سيما وأن عدداً كبيراً من أهلها هاجر إلى تلك البلاد واستقر فيها وأعطاها طابعاً أندلسياً فى مختلف النواحى الاجتماعية والفنية والثقافية[٥] .

وهذا ومن المعروف أن هذه المجــالات المرحة الصاخبة ، كان يصاحبها فى كثير من الأحيان شرب الخمر كوسيلة من وسائل المشاركة فى هذه الأعيــاد .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣٢ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢ ، ٤٢٨

(٣) راجع (J. Ribera: *Op. cit.*, p. 57).

(٤) راجع Ḥasan Husni Abdelwahab: (*Le dévelopement de la musique arabe en Orient, Espagne et Tunusie*, p. 14. Folleto publicado en 1918).

(٥) انظر (J. Ribera: *Op. eit.*, p. 75).

وآفة أخرى انتشرت فى غرناطة خلال هذه الأعياد ، وهى الحشيش ولا شك أن الحشيش قد بدأ انتشاره فى المشرق ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب . ويبدو أن المغرب والأندلس كانا فى مأمن من تلك الآفـة حتى القرن السابع الهجرى » .

كذلك يلاحظ أن النصوص والأشعار التى تكلمت عن انتشار الحشيش فى غرناطة ، ترجع كلها إلى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) مما يدل على أن انتشاره فى الأندلس كان منذ ذلك الوقت .

ولا شك أن انتشار مثل هذه الآفات راجع إلى الاضطراب والخمول الذى كانت تعانيه غرناطـة فى ذلك العهد . ويقص ابن الخطيب نادرة طريفة عن انتشار الحشيش فى بلده بقوله : « وبلغت الأندلس لهـذا العهد — أى عهد السلطان أبى سعيد البرميخو — من خمول الأمر ، واحتلال السيرة ما لا فوقه ، حدثنى صاحب شرطته ، وهو لا بأس به ، قال أطريته باجتناب الناس الخمر فى أيامه ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لى فى الملأ المشهود : والحشيش كيف حالها ؟ ، قلت : ما عثرت على شىء منه . فقال : هيهات ، انزل إلى بيت فلان وفلان وفلان ، وعد كثيراً من السـاسة والأوغاد والصفاعين ، ورسم مكانهم .

قال صاحب الشرطـة : فانصرفت إلى ما ذكر ، فوالله ما أخطأت شيئاً عما رسمه ، ولا فقدت شيئاً مما ذكره ، وذلك لغشيانه بيوتهم ، وانخراطه فى جملة منتابيهم ، فهو والله استاذى فى الشرطة ! » (١) .

---

(١) ابن الخطيب : نفـاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، نشر أحمد مختار العبادى ، ص ١٨٣ ، مجموعة تراثنا ، القاهرة ١٩٦٨

وإلى جانب هذا المظهر الدنيوى الصاخب ، كان لهذه الأعياد مظهر آخر دينى ، يحتفل به فى المساجد والزوايا والرباطات ، بل وفى قصر السلطان نفسه ، أى قصر الحمراء ، حيث كانت تقام الصلوات ، وتتلى الآيات البينات من الذكر الحكيم ، وينشد الشعراء القصائد المناسبة للمقام ، إلى جانب الأناشيد والموشحات الدينية ، وحلقات الذكر التى كان يصاحبها العزف على بعض المزامير المسماة بالشبابة أو البراعة . وفى آخر الليل تقدم الأطعمة والحلوى ، ويستمر الاحتفال حتى مطلع الفجر .

وكانت مدينة غرناطة محاطة بسلسلة من الرباطات فى الجبال التى حولها ، تقام فيها أمثال هذه الاحتفالات الدينية فى مواسم معينة . وقد زار بعضها الرحالة الطنجى المعروف ابن بطوطة فى منتصف القرن الثامن الهجرى (١٤ م) مثل رابطة بنى المحروق المعروفة باللجام ، وكانت تقع فى مكان مرتفع بالسبيكة ، ومثل رابطة العقاب التى كانت على جبل من جبال غرناطة Sierra Elvira ، وهى رابطة قديمة ورد ذكرها فى شعر أبى اسحاق الإلبيرى فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) . وفى ذلك يقول ابن بطوطة نفسه : « ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها ، الفقيه أبا على عمر بن الشيخ الصالح الولى أبى عبد الله محمد بن المحروق ، وأقمت أياماً بزاويته التى بخارج غرناطة ، وأكرمنى أشد الإكرام ، وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب . والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمانية أميال ، وهو مجاور لمدينة إلبيرة الخربة . ولقيت أيضاً ابن أخيه الفقيه أبا الحسن على بن أحمد ابن المحروق بزاويته المنسوبة للجام بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة ، وهو شيخ المتسببين من الفقراء . وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم ، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى ، والحاج

أحمد التبرزى ، والحاج ابراهيم القونوىّ ، والحاج حسين الخراسانى ، والحاجان على ورشيد الهنديان ، وسواهم[(١)] » .

ومن أهم الاحتفـالات الدينية فى غرناطة ، الاحتفال بليلة المولد النبوى . وهذا الاحتفـال لم تصبح له صبغة رسمية فى المغرب والأندلس إلا فى وقت متأخر فى أواخر القرن السابع الهجرى (١٣ م) . قبـل ذلك التـاريخ كانت الشعوب والأفراد تحتفل به دون الحكومات ، ثم استن صاحب سبتة وطنجة ، الشريف أبو القاسم العزفى[(٢)] (ت ٦٧٧ هـ) سنة جديدة وهى جعل هذا اليوم المبارك ، عيداً وطنياً رسمياً فى إمارته ، فشاركت الدولة فى الاحتفـال به ، وبذلت الأموال عن سعة ، فأكسبته روعـة وبهجة . وقد ألف الشريف أبو القاسم العزفى كتاباً حول هذه المناسبة أسماه : الدرُّ المنظم فى مولد النبي المعظم »[(٣)] .

ولم تلبث هذه العادة أن انتقلت بعد ذلك إلى بلاطات فاس ، وغرناطة ، وتلمسان ، وتونس ، حيث شاركت حكومات هذه الدول فى الاحتفال بالمولد النبوى بما يليق بمقامه العظيم[(٤)] . ولا زالت هذه السنة متبعة فى المغرب حيث

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطـة جـ ٤ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ ، نشر وترجمة دفريمرى وسانجوينتى (باريس ١٩٢٢) وكذلك :

Levi-Provençal: *Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Granada,* 1350, p. 218 en: Melanges William Marçais (Paris, 1950).

(٢) راجع شجرة نسبه إلى على بن أبى طـالب فى (المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض جـ ١ ص ٣٣) .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٣٠٩ ، نشر محمد ابن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١) .

(٤) أبو زكريا يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد جـ ٢ ص ٤٠ ، نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل (الجزائر ١٩٠٣) ، راجع كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٦٤) .

اختصت مدينــة سلا بإعداد موكب كبير يعرف بموكب الشموع ، يخرج منها فى مساء ذلك اليوم المبـارك (١٢ ربيع الأول) ، ويسير فى مقدمته نائب عن السلطان .

هكذا كانت الحياة فى مملكة غرناطة : حياة ملؤها البذل والفداء ، وحياة دنيوية صاخبة مرحة ، وحيـاة دينيـة صوفية ورعة ... صور متناقضة تذكرنا بوصف أستاذنا جارثيا جومث ، الذى شبه فيه هذا العصر الختـامى للأندلس ، بالثمالة أو القطرة الأخيرة ، فهى حلوة ومرة فى آن واحد .

أحمد مختار العبادى

قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة
فى «كتاب الصلة» لابن بشكوال[1]

هذه القائمة البسيطة لأسماء البلدان والأماكن لا تخدم غرضاً سوى جعل الطبعة الجديدة التي ظهرت أخيراً فى القاهرة لمعجم سير العلماء لابن بشكوال وما احتوته من أسماء أماكن سهلة الإفادة لدى الباحثين . فبينما نجد أن الفهارس المعدة فى الطبعة التى حققها كوديرا فى مدريد عام ١٨٨٣ غنية بأنواعها ، نجد أن ذلك غير متوفر فى طبعة القاهرة . ونظراً لأن طبعة القاهرة قد احتوت على عدد كبير من السير لم يرد فى طبعة كوديرا . لذلك فإن ترقيم السير فيها قد اختلف بالطبع عنه فى طبعة كوديرا ، مما جعل فهارس كوديرا غير صالحة للاستخدام لطبعة القاهرة . لذلك قمنا بإعداد هذه القائمة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن قراءة كوديرا لأسماء الأماكن والبلدان تكاد تكون دائماً صحيحة بينما ناشر طبعة القاهرة — الذى لم يعلن عنه والذى يبدو أنه على غير دراية تامة بطوبوغرافية الأندلس — قد أورد فى طبعته عدداً من القراءات الخاطئة لأسماء هذه الأماكن والبلدان ، تلك القراءات التى صححناها فى هذه القائمة دون أن نشير إلى ذلك دائماً ، ونحن لم نشر إلى تصحيح ما أورده مصدر الطبعة القاهرية من أخطاء فى هذه القراءات اللهم إلا فى المواضع التى نقل فيها عن كوديرا نقلا خاطئاً ، حين وجدنا أن الصواب هو ما ورد عند

(١) طبع بالقاهرة فى مجلدان عام ١٩٦٦

كوديرا . مثال ذلك : ما ورد فى طبعة القاهرة تحت رقم ١٢٩٤ « من أهل شقورة » ويذكر مصدر الطبعة فى حاشيته أن كوديرا أوردها « شتورة » بينما هي تقرأ عند كوديرا بوضوح « شقورة » (ص ٥٣٠ رقم ١١٧٨) .

ولهذه الأسباب فإن طريقة كتابة وتشكيل الكلمات التعقيبية فى قائمتنا هذه ليست مثل نظيراتها تلك التى وردت فى طبعة القاهرة غالباً بأشكال مختلفة — ولكننا أوردناها هنا بأسمائها المعتادة المتداولة . فمثلا ليس « طِلْياطة » بل « طَلْياطة » .

ونريد أن ننبه القارىء إلى أنه عند استخدام هذه القائمة يجب مراعاة ما يلى :

١ — أداة التعريف « ال » لم تدخل فى الحسبان عند ترتيب الكلمات فمثلا « المرية » مرتبة تحت حرف الميم وليس الألف .

٢ — أسماء المناطق الكبيرة مثل « المشرق ، المغرب ، الأندلس » لم تدرج فى القائمة ، بخلاف بعض الاستثناءات القليلة ، وتلك هى أسماء المناطق التى قليلا ما ترد .

٣ — فقط الأسماء العربية للأماكن التى لها إسم رسمي اليوم فى إحدى اللغات الأوربية — وذلك بالطبع فى اسبانيا والبرتغال — قد وضعناها فى القائمة بأسمائها الرسمية اليوم . وعدا ذلك فقد وضعت أسماء الأماكن التى تقع فى المغرب أو المشرق العربى بأسمائها العربية ، لأنه ليس لها أسماء رسمية موحدة بين جميع اللغات الأوربية . وكمثال لذلك أننا لم نعتبر أي تعريف أوربى لمدينة دمشق مثلا كالتعريف الفرنسى Damas أو التعريف الألمانى Damaskus تعريفاً رسمياً لهذه المدينة بين الكلمات التعقيبية فى هذه القائمة ، بل وضعت فى القائمة تحت اسمها العربى .

٤ — بخصوص البلدان التى قد لا يعرف كل قارىء موقعها فإننا قد أحلناه فيها إلى معجم البلدان لياقوت الحموى (طبعة القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ ﻫ/ ١٩٠٦ م) . أما البلدان فى الأندلس التى لم يعد لها اليوم وجود فإن القارىء قد أحيل فيها إلى مجلد المجمع الملكى للتاريخ فى مدريد — مجلد ١٤١ — مدريد ١٩٢٧ ، وتلك هى أسماء العصور الوسطى وقد وضعناها بين فاصلتين مزدوجتين مثال : « Calsena » .

٥ — أسماء الأماكن الاسبانية الواقعة بين القوسين قد ذكر التعريف بها — تباعاً من اليسار إلى اليمين — كالآتى : إسمها اليوم ، ثم فصل هذا الإسم بـ/ عن إسم الدائرة القضائية التى يتبعها ، ثم إسم المحافظة أو المديرية الحالية . فإذا كان المكان هو نفسه مركزاً لدائرة قضائية فإنه من الطبيعى ذكر اسمين .

٦ — إذا ورد إسم لجامع وسجل فى القائمة — مثال « جامع قرطبة » ، فإن إسم المكان نفسه لم يسجل مرة ثانية ، إلا إذا ظهر مرة أخرى فى مناسبة أخرى بعد ذلك تحت نفس الرقم .

٧ — التعبير عن « أهل » ليس مقصوداً به بالضرورة ولا بالغالب هذه البلدة نفسها ، بل قد يكون كورة هذه البلدة (قارن مثلا رقم ٣٠٥) .

٨ — الأسماء المنسوبة لم تسجل فى هذه القائمة إلا إذا وردت بدون أداة التعريف مثل : قرطبى ، أو بأداة التعريف ولكن متبوعة بـ « منها » مثلا « القرطبى منها » .

٩ — لم تصحح فى كل مرة الأسماء التى يشيع خطأ كتابتها فى طبعة القاهرة وهي : « اشبيليّة ، افريقيّة ، بلنسيّة ، مرسيّة » التى صحتها أن تكتب بياء خفيفة وليست مشددة أي : « اشبيلية ، افريقية ، بلنسية ، مرسية » . وبعكس ذلك فإن الأسماء الواردة فى هذه الطبعة بالشكل : « جليقيّة ، صقليّة ، غليسيّة ، المريّة » فإن كتابتها صحيحة .

١٠ — أسماء المساجد والحارات والشوارع والأرباض والأحياء يجدها القارىء تحت أسماء الأماكن التابعة لها ، وليس تحت أسمائها الخاصة بها . وقد تبدو طريقة الترتيب هذه معقدة للقارىء لأول وهلة ، ولكننا نرى غير ذلك ، لأنه لابد من الطبع أن الأمر سيكون معلوماً لدى القارىء ، عن أي مكان يرد الحديث ، وذلك عن طريق تتبعه لمحتوى النص الوارد فيه هذا الإسم .

وعلاوة على ذلك فإن لهذا الترتيب ميزته ، وهو أنه بنظرة واحدة يمكن للقارىء معرفة أى مسجد أو مقبرة أو حي أو شارع أو دار قد وجدت فى مكان أو مدينة ما قد ورد ذكرها فى الكتاب كذلك فهو يعطى أيضاً صورة واضحة للمكان الذى يقع فيه مثلا مسجد معين أو دار معينة . وحالة خاصة تلك التى ذكرت تحت إسم قرطبة : « مسجد سعد بن خلف » و « مسجد ابن بشكوال » التى سردناها على سبيل الاكتمال فقط مع أنه على ما يظن لا يتعلق الأمر بأسماء هذه المساجد فى الواقع بل بمساجد أخرى لا نعرف أسماءها الحقيقية ، والتى دفن فيها العلامة الوارد ذكره لأنه كان يؤدى صلاته ويلقى دروسه العلمية فيه .

الاشارات المستخدمة في القائمة

— تكرار للكلمة التعقيبية . وإذا وقعت بين قوسين فقد كتبت بين فاصلتين مزدوجتين .

— بين رقمين هكذا ١٥٥ — ١٦١ معناها أن الاسم المعين مذكور تحت جميع الأرقام من ١٥٥ حتى ١٦١

(« ... ») الكلمات أو النصوص المكتوبة بين فاصلتين مزدوجتين داخل قوسين هى منقولة من النص المطبوع فى الكتاب .

ص ٤١ ب معناها العمود الأيسر من الصفحة .
(رقم) ٤١ ب معناها أن الناشر قد كرر رقم هذه السيرة سهواً ؛ والرقم المتبوع بـ ب يدل على سيرة برقم تكرر سهواً فى طبعة القاهرة . فإذا وقعت السيرة ذات الرقم المكرر على صفحة تالية فإننا أضفنا إليها رقم الصفحة بين قوسين .

صفات الأماكن مثل : مدينة أو حصن الواردة فى القائمة بعد اسم المكان إنما توجد فى النص المطبوع قبل هذا الإسم وليس بعده ، مثال : « المدور ، حصن » إنما توجد فى النص : « حصن المدور » .

أسماء الأماكن في الأندلس

أُبلْيُه (Obejo / Córdoba) حصن ، أو (حصن) المهدومة : ٦٧٠ ب (ص ٣٠٣) .
إخْتيانة من عمل قبرة : ٢٠
أَرتَة من عمل شذونة ، إقليم : ١٠٨٩ (كوديرا ١٠٦٧ / ص ٤٨٣ ت : اورته) .
أَرَوْش : ٦٣٤ ت ٤ (مدينة فى كورة باجة فى غرب الأندلس) ١٣٩٣ (من بلاد الغرب) .
إسْتِجَّة (Écija / Sevilla) : ١٢٦ ، ٤٤٦ ، ٥١٣ ، ٦٧٨ ، ٨٧٨ (ص ٤٠٦ ، ١٠٦٧
من أهل أستجّة : ٤٦٤ ، ٥١٣ ، ٥٨٠
الأُشْبُونة (Lisboa) ٣٥٠ ، ١٢٣٣ (« أُشبونة » بلا ال) .

---

[1] Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 205-218.
[2] Al-Andalus, XVI, p. 33.

أُنْدَة (Onda / Nules / Castellón de la Plana) : ٨٠٤ ١٤٩٣
من أهل — : ٥٧٨ ١٢٦٣ ١٥١٠
أُورِيُولة (Orihuela / Alicante) : ٢٨٠ ٤٥٤ (ص ٢٠١ ت ١) ١٢٥٢
من أهل — : ٣٩٥ ٤٣٤ ١٢٧١ (« عمل مرسية ») .
أُولية من قَنْبانية قرطبة ، إقليم (Montemayor / La Rambla / Córdoba) : ١٠٦٠
باجــة (— الغرب ، (Beja)) : ٣٢٢ ٤٥٤ (ص ٢٠١ ت ١) ٦٣٤ ت ٤ ١٢٣٢ ١٣٠٣ ١٣٥١ ت ٣ (« باجة الغرب » وليس « العرب » كما فى المطبوع) .
باغُه ، كورة (Priego de Córdoba / Córdoba) : ١٣٠ (« دفن بها ») ٦٨٦ (« من باغة ») ٩٠٠ (« من باغه ») .
باغه التَغْلِبيّين ، قرية (من عمل جيّان) : ٣٠٥
بَجّانة (Pechina / Almería) : ٢٩ ١٣١ ١٨٩ (« بجّانـــة » ، وهو خطأ) ٣٥٤ (ص ١٥٨) ٦٩٠ ٨٧٧ (وليس ٨٧٥ ، ص ٤٠٥ ب) ٨٧٨ (ص ٤٠٦ ،) ٤١٧ ت ٤ ١٠٤٧ ١١٠٣ (ص ٥٠٧ ،) ١٤٥٥
من أهــل — : ٣٠ ٤٨ (نسبــة) ٧٨ ١١٢ ١١٤ ١٢٣ ١٣٩ ٢٠٧ ٢١٥ ٣١٣ ٣٢٥ (وليس ١٢٥ كما هو مطبوع) ٦٠٠ ٦٣١ ٦٩٠ ٧١٥ ٨٤٧ ١٠١٨ ١٠٦١ ١١٠٤ (« البجّانى منهــا ») ١١٦٣ ١١٦٨ ١٢٠٦ ١٤٥١
بجــائة : ١٠٠٧ (وهو خطــأ والصواب : بجــانة ، قارن النسبة للشخص : « البجانى ») .
البَراجِلَة (من عمل إلبيرة أو من المرّية) : ٧٩٢

[1] Al-Andalus, XXVI, p. 433, n. 1; XXX, p. 154, n. 44.

١٢٢٩ ١٢٥٦ ١٢٨٥ ١٣٠٢ (ص ٥٩٣ ت ٢) ١٣٢٢ ١٣٩٩ ١٥٠١ (ص ٦٧٩ ء) .
من أهـل — : ١٢٥ ٣٨٨ ٤١٣ ٤٥٩ ٧٢٧ ٧٩٤ ٨٦٧ ١١٤٧ ١٢٢٩ (« من ساكنى — ») ١٢٦٨
من ناحية — : ١٣٨٨
بَنْطَر : انظر « قرية بَنْطَر » .
البُونْت (Alpuente / Chelva / Valencia) : ١١٣٢ ، من أهـل — : ٦١٦ ١٠٠١
بَيّاسة (Baeza / Jaén) : ١٢٢٠ ١٣٣١
تاكُرُنّا (وليس « تاكُرْنا » كما هو مطبوع) ، عمل : ٦٧٨ (« قضاء — ») ٩٣٤ (« عمل — ») .
من أهل — : ٤٢١
تُجُنْيَـة (من عمـل اشبيلية ، Tocina / Lora del Río / Sevilla) : من أهل — : ١٠٠٦ .
تجيبه = تُجُنْيَة (وعند كوديرا وُجِد القراءة الصحيحة) .
تُدْمِير (عمل ، وهو عمل مرسية) : ٣٠٧ ٨٤٧
تُطِيلة (مدينـة فى الثغر الأعلى = Tudela / Navarra) : ٣٤٧ ت ١ ٥٤١ (ص ٢٣٨ ت ٢ : « ناحية — ») ٩٣٦ ١١٠٣ (ص ٥٠٧ ء) ١٤٦٦
من أهل — : ١٦٩ ٣٤٧ ٥٥٦ ٨٤٦ ٨٤٩ ١٠٥٥ ١٢٥٢ ١٢٧٢ ١٤١١ ١٤٥٩
تَمْـلاك (Tembleque / Lillo / Toledo) : ٤٣٧
الثَّغْر : ٥١ ٦٩ ٩٢ (ص ٤٥) ٣٣٠ (ص ١٤٦ والمقصود « الثغر الأعلى ») ٤٧٦ ٥١٢

شرّيون : من أهل — : ١٥٠٧
شَقُورة (Segura de la Sierra / Orcera / Jaén) : من أهل — : ١٢٩٤
الشقوري منها : ٨٠١
شِلْب (Silves / Faro) ، مدينة : ١٦٤ ٥٩٨ ت ١
من أهل — : ١٤٢ ١٢٤٥ ١٢٨١
شَلطِيش (Huelva / [1] «Saltés») : ٦٢١ ١١٩٥ ، من أهل — : ٦٣٣
شُمُنْتان من ناحية جيّان (Jaén / [2] Somontín) ٧٣٩
شِنْتَرَة من الغرب (Sintra / Lisboa) : ٥١٥
شَنْتَرِين (Santarem) : ٧١ (ص ٣٧) ٣٥٠ ٦٤٥ ١٤٤٧
الشنتريني منها : ٤٠٣ (بالمطبوع : « الشنتربنى » ، انظر كوديرا ص ١٧٨ / رقم ٣٩٩) .
شَنْتَمَرِيَّة (— الشرق ؟ = Albarracín / Teruel) : ١٨٠ (وهذا الشخص يقال عنه « نزل مرسية ») ٧٧٧ (« من أهل مرسية ، وأصله من — ») ٧٨٠ (« أصله من — من شرق الأندلس ») .
شَنْتَمَرِيَّة (الغَرْب ، Faro) : ٥٢٥ (« من مدائن الغرب ») ٦٤٥ (« من الغرب ») .
من أهل — الغَرْب : ١٥٠٦ (وليس « — العرب ») .
صَخْرَة حَيْوَة بلدة بغربي الأندلس : ٣٦٢
طَرَسُونَة (Tarazona / Zaragoza) : ٥١٢

---

[1] Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 163-168.

[2] Cf. Simonet: *Historia de los Mozárabes*, p, 528; *Historia de España* (Espasa-Calpe), IV, p, 217; región o comarca más bien que lugar.

1 Torres Bulbás: l. c., pp. 154-162.

(« إغْـرَناطـة ») ٩٤٢ ٩٧٤ ٩٨١ ١٢٠٨ ١٢٤١ ١٢٧٩ ١٣٢٥ ١٣٢٨ ١٣٤٢ ت ١

(« إغْرَناطـة ») ١٤٣٤ ١٤٤٠

من أهـل — : ١٥٧ ١٧٣ ١٧٩ ٣٥٣ ٤٥٧ ٥١١ ٧١٧ ٧٢٠ ٨٢٥ ٨٣٠ ٨٩٥ ٩١١ ٩١٥ ٩٧٧ ٩٨١ ١٢٩٩ ١٣٦٧ ١٤٠٤ ١٤٤٠ ١٤٧١

من ناحية — : ١٣٨٩

المسجد الجامع : ٣١٥ ٨٨٧ ٩١٤

فَحْص البَلُّوط (ناحية Los Pedroches فى محافظة قرطبة) : ٦٥

فَحْص مدينـة (Salmedina[1] / Madrid) : ١٣٣٣ (« غزاة — » ، عام ٤٤٣ هـ / ١٠٥٢ م) .

فِرِّيش (كورة ، وهى اليوم ناحية موضع Constantina من محافظة Sevilla) : ١٠٩٨ (« قرّيش » وهو خطأ) .

فنتيش = قنتيش

الفَهْمِين (= الفَهْمِيِّين) (Castillo de Alamín[2] / Toledo) ، الرباط فى : ٣٧ (ص ٢١ ب / ٢٢ ء : « فى الرباط » فقط) ٥٠٣ ١٤٢٦ (ص ٦٤٩ ب « حصن الفهْمَين ») .

قادِس (Cádiz) : ١٠٢٣ ، من أهل — : ٨٨ ١٠٢٣

قَبْرَة (Cabra / Córdoba) ، عمل : ٢٠ ٢٣ ١٢٩٥ (« مدينة — ») .

قبّش (بقرطبة ؟) : ١٠٧٣

---

[1] Cf. J. Oliver Asín: *Estudios de toponimia madrileña. «La Salmedina» y «Vaciamadrid»*, Revista de la Biblioteca, Archivo y Museo (del Ayuntamiento de Madrid) XVII (1948), pp. 172-179, (pp. 173-175 especialmente).

[2] Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 59-62.

٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٦ ٩٧٨ ٩٨٤ ٩٩٢ ١٠٠٧ ١٠٠٩ ١٠١٥ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٨
١٠٣٧ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٥ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٥٢ — ١٠٥٤ ١٠٥٨ — ١٠٦٠
١٠٦٣ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٥ ١٠٩٥ ١٠٩٨ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٧ ١١٠٨
١١١٠ ١١١٣ (ص ٥١٠ ب) ١١١٧ ١١١٨ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٥ ١١٢٧
١١٣٢ ١١٣٧ ١١٣٩ ١١٤٨ ١١٥٠ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٨ ١١٦٠ ١١٧٠
١١٧٨ ١١٨٦ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٧ ١٢٠٣ ١٢١٠ ١٢١٦
١٢٢٠ ١٢٣٠ ص ٥٦١ ت ٢ (بلا رقم) ١٢٣٢ ١٢٤٥ ١٢٤٨ ١٢٥٤ ١٢٦٥
١٢٧٠ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٨ ١٢٩١ ١٢٩٤
١٢٩٧ (ص ٥٩١ ء) ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٩ ١٣١٤ ١٣١٨ ١٣١٩ ت ٣
١٣٢٢ ١٣٢٦ ١٣٢٩ ١٣٣٢ ١٣٣٥ ص ٦١٠ ت ١ ١٣٣٧ ١٣٣٩ ١٣٤٧
١٣٤٩ ١٣٥٥ ١٣٥٦ — ١٣٥٨ ١٣٦٥ ١٣٧٤ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨٣ ١٣٨٦
١٣٩٠ ١٣٩١ ١٤٠١ ١٤١٠ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤٢٦ ١٤٣٤ ١٤٣٨ ١٤٣٩
(ص ٦٥٥ ء) ١٤٤١ (ص ٦٥٦ ب) ١٤٤٦ — ١٤٤٨ ١٤٥٧ ١٤٦٢ ١٤٧٢
١٤٧٥ ١٤٧٧ ١٤٨٠ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٥ ١٥٠١ ١٥٠٦
١٥١٢ (ص ٦٨٤) ١٥٢١ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٧ ص ٦٩٧ ب

من أهــل قرطبــة : ١ ٩ ١٠ ١٣ ١٤ ١٦ — ٢٨ ٣١ — ٣٣ ٣٥ ٣٦ ٣٩
٤١ — ٤٦ ٥١ — ٥٥ ٥٧ (مطبوع : ٥٨) ٦١ ٦٣ ٦٦ ٦٩ ٧٠ ٧٣ — ٧٥
٧٩ ٨٣ ٨٥ ٨٦ ٨٩ ٩٤ ٩٦ ٩٨ ٩٩ ١٠٤ ١٠٦ ١١٠ ١١٦ ١١٩ ١٢٢
١٢٧ ١٣٠ ١٣٣ ١٣٤ ١٤٠ ١٤٤ ١٥٥ ١٥٨ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٥ ١٧٠ ١٧٤
١٩٥ — ١٩٧ ٢٠٦ ٢١٣ ٢١٤ ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٣٦ ٢٤٩ — ٢٥٢ ٢٥٤ ٢٥٨
٢٦٠ ٢٦٨ ٢٧٢ ٢٧٤ — ٢٧٧ ٢٨٣ ٢٩٣ ٢٩٥ ٢٩٧ ٣٠٤ ٣٠٩ — ٣١٢
٣١٥ ٣٢٢ (مطبوع : ٣٣٢) ٣٣٥ ٣٣٧ ٣٣٩ (مطبوع : ٢٣٩) ٣٤٤ —
٣٤٦ ٣٤٩ — ٣٥٢ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٩ ٣٦١ ٣٦٣ ٣٦٥ ٣٧٠ ٣٧٥ ٣٩١ ٣٩٧

٣٩٩ ٤٠٢ ٤٠٨ ٤١٢ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢٣ — ٤٢٥ ٤٢٩ ٤٣٦ ٤٤٠ ٤٤١
(ص ١٩٤ ت ٤) ٤٤٤ ٤٤٦ ٤٤٨ ٤٥٤ ٤٥٦ ٤٦٢ ٤٦٨ ٤٦٨ ب ٤٧١
٤٧٣ ٤٧٥ ٤٧٧ — ٤٧٩ ٤٨١ ٤٨٣ — ٤٨٥ ٤٨٩ ٥٠٦ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٩
٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٨ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٤٨ ٥٥١ ٥٥٧ ٥٥٩ — ٥٦١ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٦
٥٦٨ — ٥٧٦ ٥٨١ ٥٨٤ (٥٨٣ ب) ٥٨٥ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٩٠ ٥٩٣ ٥٩٥ —
٥٩٧ ٦٠٧ ٦١٧ ٦٢١ ٦٢٣ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٦ ٦٥١ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٩ ٦٧٠
٦٦٧ ب (ص ٣٠٢) ٦٧٠ ب (ص ٣٠٣) ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٥ — ٦٨٠ ٦٨٤
٦٨٧ — ٦٨٩ ٦٩١ — ٦٩٤ ٧٠٠ ٧٠٣ ٧٠٥ ٧٠٧ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١٦ ٧٢٦
٧٣١ ٧٣٤ ٧٤١ ٧٤٦ ٧٤٩ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٧ ٧٦١ ٧٦٣ — ٧٦٦ ٧٦٨ ٧٧١
٧٧٢ ٧٧٤ ٧٧٦ ٧٨٠ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩٥ ٧٩٧ ٨٠١
٨١٣ — ٨١٥ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٤ ٨٢٦ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣١ ٨٤٩ (= ٨٥١
ص ٣٩٦) ٨٥٢ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٧ ٨٦٢ (مطبوع: ٨٦٠، ص ٣٩٩) ٨٦٨
٨٧٣ ٨٧٨ (مطبوع: ٨٧٦، ص ٤٠٥) ٨٨٦ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٤ ٩٠٠ ٩٠٨
٩٢٨ ٩٣٣ ٩٣٧ ٩٤٣ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٩ ٩٦١ ٩٦٤ — ٩٦٦ ٩٧٦ ٩٩٥ ٩٩٧
٩٩٩ ١٠٠٩ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠٢٨ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٤ ١٠٣٥
١٠٣٧ — ١٠٤٢ ١٠٤٦ ١٠٤٨ ١٠٥٠ ١٠٥٣ ١٠٥٦ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦٣ —
١٠٦٦ ١٠٦٨ — ١٠٧٠ ١٠٧٣ (ص ٤٩٥ ب) ١٠٧٤ ب (ص ٤٩٦ ء)
١٠٧٥ ١٠٧٨ ١٠٧٩ — ١٠٩٠ ١٠٩٢ — ١٠٩٤ ١٠٩٦ ١٠٩٨ — ١١٠٠ ١١٠٢
١١٠٣ ١١٠٦ ١١٠٩ ١١١١ — ١١١٣ ١١١٦ ١١٢١ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٩
١١٣٢ ١١٣٥ — ١١٣٧ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٦؛ ١١٤٨ — ١١٥١
١١٥٤ ١١٥٧ — ١١٥٩ ١١٦٤ ١١٦٦ ١١٧٠ ١١٧٢ — ١١٧٤ ١١٧٨ — ١١٨٠
١١٩٠ ١١٩٤ ١٢٠٣ ١٢١٠ ١٢١٤ ١٢١٩ ١٢٢١ ١٢٢٧ ١١٢٨ ١٢٣٩
١٢٥٠ ١٢٥٥ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦٤ ١٢٦٦ ١٢٨٢ ١٢٨٣ («من قرطبة»)
١٣٠٠ — ١٣٠٢ ١٣٣١ ١٣٣٥ ص ٦١٠ ت ١ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٨ ١٣٤٩
١٣٥٢ ١٣٥٦ ١٣٦٤ ١٣٧٢ ١٣٧٤ ١٣٧٨ ١٣٨٠ ١٣٨٢ ١٣٨٤ ١٣٨٥
١٣٩٥ ١٣٩٨ ١٤٠٨ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٨ — ١٤٢١ ١٤٢٣ ١٤٢٨ ١٤٢٩

مساجد قرطبة

مقابر قرطبة

٢٥٢ ٢٧٢ ٢٨٠ (ص ١١٧) ص ١٢٤ ب (بلا رقم) ٣٦٣ ٥٧٤ ٦٩٤ (ص ٣٢٤) ٦٩٨ (ص ٣٢٨) ٧٤٨ ٧٥٠ ٧٥٥ ٨٠٨ ٨١٦ ٨٣٧ ١٠٤٨ ١٠٥٠ ١٠٥٣ ١٠٧٩ ١٢٩٤ ١٣٣٥ ص ٢١٠ ت ١ ١٤٢٨ ١٥١٢ (ص ٦٨٦ ء) ١٥١٨ ص ٦٩٨ ء .

— أبى العباس الوزير : ٢٢ ٥٦٥ ٥٧٤

— بنى العباس : ٦٥ ٦٧٨ ٧١٠ (ص ٣٣٤) ١٠٧٨ ١٣٧٢

مقبرة فُرانِك بالرصافة (أهى « مقبرة الرصافة السابقة » ؟) : ٥٣٨ ١٤٥٤ (ص ٦٢٢ ب) .

مقبرة قُرَيش : ١٥ ٣٨ ٣٢٢ ٣٤٤ ٥٢٣ ٥٤٨ ت ١ ٨١٩

مقبرة كلع : ٦٧٠ ب (ص ٣٠٤) ٦٨٤ ١٢٩١

مقبرة الكلاعى : ١٠٤٨ (« وسكناه بربض ابن مكيس عند — مجاور الرملة ») .

مقبرة مُؤمَّرة : ٢٨ ٥٧٢ (ص ٢٥٣) ٦٦٦ ١٠٧٤ ب (ص ٤٩٦ ء ، حومة) .

مقبرة مُتْعَة : ٤٤٠ ٥٥٨ (ص ٢٤٧) ٧٦٥ ص ٦٣٥ ت ١

مقبرة منية المغيرة : ١٠٣١

مقبرة نَجْم : ٤٣ (ثلاث مرّات) .

مقبرة اليهود : ٦٧٥ (وبينها وبين مقبرة حلال الطريق السالك بجوفى قرطبة) .

قَرْمُونَة (Carmona / Sevilla) : ٦٠٦ ٦٧٨ ١٠٧١ ، من أهل — : ٦٠٦

قرية بَنْطَر : ٥٢٥ ، وهو تحريف ، والصحيح عند كوديرا (ص ٢٢٨ / رقم ٥٢٠) : « قرية رَباح (بنَظَر) شنتمريّة من مداين الغرب » .

قرية بنى ثروان (من باجة غرب الأندلس) : ٤٥٤ (ص ٢٠١ ت ١) .

قرية بنى شيحانة ، قرية على ثُلْث ميل من منتقود (فى الطبعة : « منتقودسى فى عائد من البجانة » !) : ٨٩٢ ب (ص ٤١٧ ت ٤) ، وحصن مُنْتَقُود بشمال مرسية .

---

[1] Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 168-175.
[2] Torres Balbás: l. c., pp. 79-114.
[3] Torres Balbás: *Estudios de arqueología e historia urbana: Complutum, Qalʿat ʿAbd al-Salām y Alcalá de Henares*, Brah CXLIV (1959), pp. 155-188.

---

[1] Cf. Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 142-148.

---

[1] Cf. Torres Balbás: *Ciudades yermas*, pp. 52-58.

أسماء الأماكن المغربية والمشرقية

ص ٥٩١ ت ١ (من طبعة كوديرا ص ٥٣٣ مُغيلة [1]) .
مكّة : ٣٧ (ص ٢١ ء) ٧٣ ٨٩ ٩٢ ٩٧ ١٤١ (ص ٦٦ ب : « بيت الله الحـرام ») ٢٢١ ٢٣٧ ٢٥٩ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٣٠ (ص ١٤٤) ٣٣٥ ٣٣٧ ٣٤٧ ت ١ ٣٥٤ ٣٦١ ٣٧٧ ٣٩٦ ٤٠٤ ٤٢٨ ٤٥٤ ٤٥٦ ٤٦٢ ٤٧٠ ٤٩٨ ٥٠٣ ٥٢٣ ٥٢٥ ٥٢٧ ٥٥٨ (ص ٢٤٦) ٥٧٢ (ص ٢٥١ / ٢٥٥) ٥٨١ ٥٨٤ (= ٥٨٣ ب ، « بيت الله الحرام ») ٥٨٦ ٥٩١ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٦ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٩٤ ٧٠٧ ٧١٠ ٧٢٨ ٧٣٥ ٧٧٣ ٧٧٤ ٨٠٦ ٨١٢ ٨١٦ ٨٧٨ (ص ٤٠٦ ء) ٨٨٣ ٩١٦ (« بيت الله الحرام ») ٩٢١ ٩٦٣ ٩٦٥ ٩٧٣ ٩٨١ ٩٨٣ ١٠٧٨ ١١٠٣ (ص ٥٠٦ ء) ١١١٣ (ص ٥١١ ء) ١١٥٨ (ص ٥٣٠ ء) ١١٦٩ ١١٧٥ ١١٨٣ — ١١٨٦ (١١٨٤ و ١١٨٥ : « بيت الله الحرام ») ١١٩٣ (« البيت ») ١١٩٩ ١٢٠٠ (ص ٥٤٨ ب) ١٢١٩ (« بيت الله الحرام ») ١٢٣٠ (ص ٥٦٠ ء) ١٢٣١ ١٢٣٥ ١٢٤٩ ت ٢ ١٢٥٢ ١٢٩٧ (ص ٥٩٠ ب) ١٣٠٧ ١٣١٣ ١٣٢٢ ١٣٢٥ ص ٦١٠ ت ١ (« بيت الله الحرام ») ١٣٣٧ ١٣٥٨ ١٣٧٧ ١٣٠٩ ١٤٢٦ ١٤٥٧ ١٤٦٢ ١٤٧٩ ١٥٠٣ ١٥٢٧ ١٥٣٩

زمزم : ٤٤١ ١١٩٣ ١٢٢٧

الصَفا : ١٤٥٠ [2]

العَلَم الأخضر = الميل الأخضر : ١٤٥٠ [2]

المروة : ١٤٥٠ [2]

مسجد الحرام : ٥٢٧

الميل الأخضر : ١٤٥٠ [2]

---

1 Cf. H. Terrasse: *Histoire du Maroc,* I, 197; Jean Leon L'Africain: *Description de l'Afrique* (trad. Epaulard), I, p. 247, n. 360 (en el oeste de Fez cerca del *Wād Mgila).*

2 Cf. Wüstenfeld: *Die Chroniken der Stadt Mekka,* IV, p. 344, n. 3; I, 313, 316; II, 15; 101; III, 102.

الميل الثانى = بطن المسيل : ١٤٥٠ [1]

المرولة (« فى بطن المسيل ») : ١٤٥٠ [1]

مَليلة (فى المغرب الأقصى) : ٤٠٥

المُنَستير ، مقبرة (قرب سوسة افريقية) : ٦٧ (ص ٣٥) .

المَهديّة (عمل افريقية) : ٦٧ ١٨٨ ٣١٨ ٩٨١

المَوصِل : ٤٥٤ ٥٤١ (« ديار الموصل ») .

مَيّافارِقين (فى الجزيرة واليوم فى تركيا) : ٨١٦

نَصِيبين (فى الجزيرة) : ٧١٠

نيسابور : ٣٠٨ ٩٦٣

وادى القُرى : ٣٧ (ص ٢١ ،) ١٣٨٠

واسط : ٣٣٠ (ص ١٤٤) .

اليـاسِريّة (قرب بغداد) : ٩٦٣ (ص ٤٤٨ ،) ، انظر ياقوت « معجم البلدان » ٨/ص ٤٩١

اليمن : ٢٤٧ ٤٣٩ ٩٥٧ ١٠٨٦

هانز - رودلف سنجر

رئيس قسم اللغة العربية بمعهد الدراسات الأجنبية

جامعة ماينز - جرمرسهايم - ألمانيا الاتحادية

---

1 Cf. Wüstenfeld: *Die Chroniken der Stadt Mekka,* IV, p. 344, n. 3; I, 313, 316; II, 15; 101; III, 102.